

سُورَةُ الْجِنِّ

حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

رَحْلَةً مِنْ رَهَقِ الْخَوْفِ إِلَى رُشْدِ التَّوْحِيدِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ



سُورَةُ الْجِنِّ

حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عِزِّ الْخَلْقِ

رحلةٌ من رهق الخوف إلى رشد التوحيد

تأليف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

مقدمة منهجية

حين يفتح الوحي نافذةً على العالم الذي لا نراه

ليست سورة الجن حكايةً عن مخلوقاتٍ مستترةٍ أريد للإنسان أن يشبع بها فضوله تجاه الغيب، ولا نافذةً فتحت لكي ينصرف العقل من واجبات الأرض إلى مطاردة أسرار العوالم الخفية، وإنما هي سورةٌ تعيد ترتيب علاقة الإنسان بالغيب كله، فتعلّمه أن الغيب لا يُطلب للفرجة، وإنما للإيمان، وأن ما كشف الله منه إنما كشفه بمقدار ما يبني اليقين ويصحح العبادة ويهدم الوهم، ولهذا كان من أعمق أسرار السورة أن أخبار الجن فيها لا تنتهي إلى الجن، بل تنتهي إلى الله؛ تبدأ بـ **يَوْمَ سَمِعُوا الْقُرْآنَ**، ثم ما تلبث أن تقود القارئ إلى حقيقة التوحيد، وتنزيه الرب، وعجز الخلق، وبطلان الاستعاذة بغير الله، وانقطاع دعاوى علم الغيب، وخضوع الكون كله لسلطان الواحد الأحد، حتى يبدو عالم الجن في ختام الرحلة مجرد مرآة أخرى يرى الإنسان فيها الحقيقة التي خُلق هو أيضًا ليعرفها: أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا هداية إلا من كلامه، ولا عظمة تستحق أن نخني لها القلب إلا عظمته سبحانه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

والمدهش في هذه السورة أن الجن، وهم في الخيال البشري مظنة الغموض والقوة والاستتار، يظهرون بين يدي القرآن لا باعتبارهم كائناتٍ مخيفةٌ تُسترضى وتُتقى، بل باعتبارهم مكلفين يسمعون ويعقلون ويختارون ويهتدون ويضلون؛ فيسقط بذلك جزء عظيم من الخرافة التي علقت بعلاقة البشر بهم، ويتبين أن الفارق الحقيقي في الوجود ليس بين مرئي وغير مرئي، ولا بين إنس وجن، وإنما بين قلبٍ استجاب لله وقلبٍ أعرض عنه، وبين مخلوق عرف منزلته من العبودية ومخلوق توهم لنفسه ما ليس له. ولهذا كانت أول صورة تعرضها السورة صورةً جنٍّ مستمعين؛ فالقرآن لا يعرفهم لنا بقدراتهم، بل بموقفهم من الوحي، وكأن أول ما ينبغي أن تعرفه عن أي مخلوق ليس مقدار ما يملك من القوة، وإنما مقدار ما يملك من الاستجابة لله.

وسنسير في هذا الكتاب مع آيات السورة آيةً آيةً، على أصليٍّ منهجي واضح: أن التدبر لا يعني أن نحمل النص ما لم يحتمل، ولا أن نستخرج من ألفاظ الوحي أسراراً غامضة لا يدل عليها سياقه، بل أن ننطلق من المعنى الذي دل عليه اللفظ القرآني والسياق، ثم نفتح القلب لما يفيض به ذلك المعنى من هداية وتربية وبصيرة؛ فليس المقصود أن تنافس كتب التفسير في استقصاء الأقوال والروايات، وإنما أن نقيم في رحاب المعنى الصحيح طويلاً حتى نرى أثره في النفس والحياة، مع الالتزام بحدود النص، واحترام عالم الغيب الذي لا يجوز أن نتحدث

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

فيه إلا بما أخبر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الغيب أرضٌ لا يجوز للعقل أن يمشي فيها بغير مصباح الوحي.

وسنلاحظ خلال الرحلة أن السورة مبنية على انتقالاتٍ بالغة الدقة؛ من دهشة السماع إلى قرار الإيمان، ومن الإيمان إلى تصحيح التصورات، ومن تصحيح التصورات إلى هدم خرافات الجاهلية، ومن الحديث عن الجن إلى الحديث عن الإنسان، ومن ذكر السماء إلى ذكر المسجد، ومن أخبار المخلوقين إلى إعلان الرسول صلى الله عليه وسلم حدود قدرته وعبوديته، ثم ينتهي المشهد كله عند باب الغيب الذي يحتفظ الله بمفاتيحه، فلا يطلع عليه أحداً إلا من ارتضى من رسول، وبالمقدار الذي تقتضيه الرسالة. وهكذا تضع السورة كل موجودٍ في مكانه الصحيح: الجن جنٌّ، والإنس إنسٌ، والرسول رسول، والملائكة حرس الوحي، والغيب غيب الله، والرب وحده فوق الجميع؛ عالم الغيب، المحيط بما لديهم، المحصي كل شيء عدداً.

إنها سورةٌ شديدة الأهمية لعصرٍ لا يزال الإنسان فيه، رغم وفرة العلم، أسيراً لصور جديدة من الخرافة؛ فقد تغيّر أسماء الأوهام ولا يتغير جوهرها، ويظل القلب يبحث عن مخبره بما وراء الستار، أو يحرس مستقبله، أو يكشف له مجهولاً، أو يمنحه قوةً مستترة، بينما تأتي سورة الجن لتقول في وضوح عجيب: إن عالم الغيب نفسه خاضع لله، وإن من ظننت أنهم

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

يعلمون الغيب كانوا يجلسون مقاعد للسمع ثم حيل بينهم وبينه، وإن الذين استعاذ بهم بعض البشر لم يملكوهم نجاةً بل زادوهم رهقاً، وإن الرسول نفسه مأمور أن يقول: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾. فإذا كان خير الخلق صلى الله عليه وسلم يعلن عبوديته بهذا الصفاء، فمن ذا الذي يجوز أن يعلق القلب به من دون الله؟

ولهذا فإن التأمل في سورة الجن هو في حقيقته رحلة لتحرير القلب؛ تحريره من الخوف من المخلوق، ومن الشغف المرضي بالغيب، ومن تضخيم الوسائط، ومن أوهام القوى الخفية، ومن تصور أن للكون زوايا خارجة عن سلطان الله؛ فالسماء التي يطلب الجن بلوغها محفوظة بأمره، والأرض التي يسير فيها الإنسان مملوكة له، والمساجد له، والرسول عبد له، والغيب عنده، والوحي يخرج من عنده، وكل شيء تحت إحصائه. وما إن يستقر هذا المعنى في القلب حتى يشعر المرء أن الكون، على اتساع عوالمه الظاهرة والخفية، ليس متاهةً مظلمة، بل مملكة واحدة لرب واحد.

ومن هنا نبدأ؛ من لحظة استماع غير متوقعة في طريق من طرق الأرض، حين مر نفر من الجن بكلام الله، فإذا بالكلمات التي كان كثير من البشر يقاومونها تغير في لحظات قلوب مخلوقات لم يرها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تستمع، ثم عادوا إلى قومهم دعاة لا يملكون إلا ما سمعوه، لكنهم أدركوا من أول وهلة ما قد تمر أعوام على بعض البشر وهم لا

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

يدركونه: أن هذا القرآن عجب، وأنه يهدي إلى الرشد، وأن من عرف حقيقة كلام الله لم

يعد قادراً أن يبقى بعده كما كان قبله.

الفصل الأول

حين يسمع القلب كلاماً لا يستطيع أن يعود بعده كما كان

الآيتان الأولى والثانية

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾

تبدأ السورة بكلمة ﴿قُلْ﴾، وكأن أول حاجز تهدمه أماننا هو حاجز مصدر المعرفة؛ فما سيقال عن الجن ليس مادةً شعبية تناقلتها الخيلة، ولا تجربةً باطنية ادعاها صاحبها، ولا خبراً أتى به كاهن من وراء الحجب، وإنما وحيٌ يأمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبلغه. وهذه البداية وحدها تؤسس ميزاناً كاملاً في التعامل مع الغيب: ما أخبر الله به صدقناه، وما سكت عنه لم نحول جهلنا به إلى ساحة للخيال؛ لأن العقل حين يقتحم الغيب بلا وحي لا يكتشف الحقيقة، بل يصنع أسطوره الخاصة ثم يخاف منها. فجاء القرآن لا ليملأ كل فراغ في فضول الإنسان، وإنما ليعطيه من الغيب ما يحتاجه ليعرف ربه ومصيره وموضعه في هذا الكون.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

ثم تأتي المفاجأة: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾. لم يقل إنهم اقتحموا السماء، ولا إنهم أظهروا قوة، ولا إنهم صنعوا شيئاً خارقاً؛ إن أول فعل سجله القرآن لهم هو الاستماع، وكأن أعظم ما حدث لهم في تلك اللحظة لم يكن من جهتهم أصلاً، بل من جهة ما دخل إلى أسماعهم. وهذه صورة ترد الإنسان إلى حقيقة كثيراً ما ينساها: قد نغير حياة كاملة بسبب لحظة إنصات صادقة، وقد يبقى المرء أعواماً قريباً من الحق ولا يتغير لأنه لم يسمعه بقلبه، بينما يمر آخر به مرة واحدة فتنتظم في داخله أشياء كانت مبعثرة منذ سنين. ليست المسافة بين الضلال والهداية دائماً سنوات طويلة؛ قد تكون المسافة أذنًا صدقت في الاستماع وقلباً لم يستكبر عن الاعتراف.

وقوله تعالى ﴿اسْتَمِعْ﴾ أبلغ في تصوير الحالة من مجرد السماع العابر؛ فالاستماع فيه قصد وانتباه وإصغاء، ولهذا كان أول أثر القرآن فيهم أنهم أدركوا أنه ليس كلاماً يشبه ما اعتادوا سماعه، فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾. وهذه الكلمة القصيرة، ﴿عَجَبًا﴾، تحمل رجفة اللقاء الأول بين الفطرة والوحي؛ كأنهم لم يجدوا في معجمهم وصفاً يطابق ما سمعوه، فاختصروا دهشتهم في كلمة واحدة. وليس عجب القرآن عجب الغرابة التي تدهش ثم تنقضي، بل عجب الحقيقة حين تكشف فجأة عن اتساعها؛ عجب النظم الذي لا يشبه كلام

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

المخلوقين، وعجب المعاني التي تمسك بأطراف الوجود، وعجب القدرة على أن يخاطب الخطاب الواحد العقل والضمير والخوف والرجاء والتاريخ والمصير دون أن يتفكك.

ومن أعمق ما نتعلمه هنا أن القرآن حين دخل عليهم لم يطلب منهم زمناً طويلاً ليبرهن أنه يستحق الإصغاء؛ كان سلطانه في ذاته، وكان فيهم من سلامة الفطرة ما جعلهم يعرفون الفرق بين الكلام الذي يمر على الإنسان والكلام الذي يدخل فيعيد ترتيب قلبه. وقد لا يكون الخلل في القرآن إذا قرأناه ولم ندهش، بل في الحجب التي تراكت على موضع الدهشة فينا؛ كثرة الألفة، والعجلة، والانشغال، والقراءة التي تبحث عن نهاية الصفحة بدل أن تبحث عن بداية التحول. هؤلاء الجن سمعوه مرةً فقالوا ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾، وكم من مسلم يقرأه أعواماً ثم لا يكاد يتوقف طويلاً أمام شيء؛ لا لأن البحر قد قل ماؤه، بل لأن الدلو أصبح يهبط إليه مغلقاً.

لكنهم لم يجعلوا الدهشة غاية، وهذه نقطة فارقة في بناء السورة؛ فما أسرع ما انتقلوا من جمال ما سمعوه إلى وظيفته: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾. لم يقولوا: يدهشنا، أو يسحر أسماعنا، أو يملأ نفوسنا بالجمال، مع أن أول وصف لهم كان العجب، وإنما أدركوا أن القيمة الكبرى للقرآن أنه يهدي. فالوحي في التصور القرآني ليس تحفةً لغوية معلقة في متحف البلاغة، وإن كان في ذروة البيان، وليس مادةً ثقافية تضاف إلى خزائن المعرفة، وإنما دليل طريق في

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

قضية الوجود الكبرى: من أين جئت؟ ولمن تعيش؟ وإلى أين تصير؟ وكيف تنجو من أن

تضل في الطريق بين البداية والنهاية؟

والرُّشد كلمة واسعة مضيئة؛ فهي ليست مجرد معرفة الصواب نظرياً، بل السير في الاتجاه الذي يؤدي إلى الخير والعاقبة السليمة، ولهذا قابل القرآن في مواضع أخرى بين الرشد والغي، فالرشد استقامة في التصور والوجهة والسلوك. هؤلاء المستمعون أدركوا سريعاً أن القرآن لا يعطي الإنسان معلومة فحسب، وإنما يعيد توجيه مساره؛ فهو يأخذ القلب من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، ومن الحيرة إلى البصيرة، ومن الخوف المبعثر إلى الخشية الواحدة، ومن التعلق بوعود الأرض إلى الاطمئنان بوعد الله. ومن هنا نفهم لماذا لم يقولوا: عرفنا أنه يهدي إلى الرشد فاحتجنا إلى دراسةٍ طويلة قبل أن نحدد موقفنا، بل قالوا مباشرة: ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾؛ لأن الحقيقة حين تتجلى لقلب سليم تصبح الماطلة نفسها نوعاً من الخيانة لما عرفه.

وكم هي عظيمة هذه الفاء في ﴿فَأَمَّا﴾؛ إنها فاء المسافة القصيرة بين المعرفة الصادقة والاستجابة. سمعنا، عرفنا، فأما. لا مفاوضات طويلة مع الهوى، ولا محاولة لإعادة تشكيل الوحي حتى يوافق الموروث، ولا اشتراط أن يمنحهم أولاً كل ما تشتهي نفوسهم. هناك لحظة يصبح فيها المطلوب من الإنسان أخلاقياً قبل أن يكون معرفياً: لقد ظهر لك الحق،

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

فماذا ستصنع به؟ ومن أخطر ما يصيب القلب أن يعرف ثم يؤجل، ويقتنع ثم يساوم، ويرى الطريق ثم ينتظر أن تصبح كلفة السير فيه أقل. الهداية ليست معلومة تستريح في الذهن؛ إنها نداء يطلب خطوة.

ثم تظهر الثمرة الأولى للإيمان في قولهم: ﴿وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. وما أسرع ما أوصلهم القرآن إلى المركز؛ لم يبدأ أثره فيهم بتفصيلات الهامش، بل وصل إلى أصل الأصول: من هو الرب الذي يستحق أن يعبد؟ وكأن الهداية كلها مهما تعددت طرقها تعود في النهاية إلى تصحيح جهة القلب. واللافت أنهم قالوا ﴿رَبِّنَا﴾؛ فالذي لن يشركوا به ليس فكرة مجردة، بل ربهم؛ خالقهم، ومالكهم، ومدبرهم، ومن إليه فقرهم ومرجعهم. وحين تستقر الربوبية في الشعور تصبح العبادة نتيجة طبيعية: إذا كان هو ربنا، فما معنى أن نقسم القلب بينه وبين أحد من خلقه؟

وقوله ﴿أَحَدًا﴾ يغلق كل نافذة قد يتسلل منها الشرك؛ لا ملكًا، ولا نبيًا، ولا جنيا، ولا صالحًا، ولا قوة من قوى الطبيعة، ولا كائنًا مرئيًا أو خفيًا، ولا معنى يتضخم حتى ينازع حق الله في القلب. فالقرآن لا يكتفي بأن يخرج الأصنام الحجرية من المعبد، بل يريد أن يخرج كل صنم من الضمير. وقد لا يسجد الإنسان اليوم لصنم، ولكنه قد يمنح مخلوقًا من

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

الخشوف أو الرءاء أو التعلق ما لا ينبغي إلا لله؁ فتأتي هذه الآية بصفائها القاطع: ﴿وَلَنُ

نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾؛ قلب واحد؁ ورب واحد؁ وعبودية لا تنوزع.

وثمة مفارقة بالغة الجمال في أن تأتي هذه العقيدة على لسان الجن أنفسهم؛ فالجن الذين استعبد بهم؁ وخيف منهم؁ ونسبت إليهم قوى وأسرار؁ يقفون هنا معلنين أنهم هم أيضاً عبيد لله؁ وأن الرشد الذي جاء به القرآن أول ما يقتضيه أن لا يُشرك بالله أحد. فكان السورة تواجه الإنسان بخطاب قاطع: هؤلاء الذين ربما ضخمتم مخيلتكم حتى صنعت بينهم وبين الله وسائل خفية؁ قد تعلموا من القرآن أن يخلعوا كل شريك؁ فكيف تجعلهم أنت شركاء في خوفك ورجائك وتصورك للغيب؟ إن القرآن يحرر الجن من أوهامهم؁ ويحرر الإنسان في اللحظة نفسها من أوهامه عن الجن.

ولعل أبلغ ما تبقى في النفس من هاتين الآيتين أن الهداية تبدأ أحياناً من فعل يبدو بسيطاً جداً: أن تستمع. ولكن الاستماع الذي يغير المصير ليس حركة الأذن؁ بل استعداد القلب لأن يتنازل عن سابق أحكامه إذا جاء الحق. لقد خرج هؤلاء من الاستماع بعقيدة جديدة؁ ووجهة جديدة؁ وعهد جديد: ﴿وَلَنُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. وبينما كان قوم من البشر يسمعون القرآن نفسه ثم يجادلون في مصدره؁ كانت مخلوقات من عالم لا يراه البشر تسمعه

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

فتتعرف فيه على الرشد. وهنا ينكشف قانون لا يتغير: ليست المشكلة دائماً في مقدار وضوح النور، بل في سلامة العين التي تستقبله.

وهكذا تضعنا السورة منذ أول خطوتين أمام سؤالها الكبير: ماذا يفعل القرآن بك حين تسمعه؟ ليس السؤال: كم مرة قرأته؟ ولا كم تحفظ منه؟ ولا كم تعرف من تفسيره فحسب؛ بل هل انتقلت به من حال إلى حال؟ هل أصبح شيء في تصورك أو عبادتك أو خوفك أو رجائك مختلفاً؟ لأن الذين قص الله علينا خبرهم لم تكن بينهم وبين القرآن صحبة طويلة حين قالوا: ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾، لكن اللحظة كانت صادقة بما يكفي لتغير الاتجاه كله. وقد يكون من أشد الحرمان أن يكون القرآن قريباً من اليد، بعيداً عن موضع القرار في القلب.

وفي هذا المطلع نتأسس الرحلة كلها: الوحي مصدر المعرفة، والاستماع باب التحول، والقرآن عجب في بيانه وهدايته، والرشد غايته، والإيمان جوابه، والتوحيد أول ثماره. وما تزال أصوات أولئك النفوس تتردد في السورة كأنها شهادة قادمة من وراء عالمنا المرئي لتعيد إلى الإنسان أبسط الحقائق وأعظمها: إذا سمعت كلام الله حقاً، فلن يبقى السؤال: هل أعجبك؟ بل: إلى أين قادتك؟

الفصل الثاني

حين يصحح الوحي معرفة القلب بربه

الآيات الثالثة إلى السابعة

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۖ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ مِنَ الْإِنسِ يُعْذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۖ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ۖ﴾

ما إن أعلن أولئك النفر إيمانهم بالقرآن وعهدهم ألا يشركوا بربهم أحداً حتى أخذ التوحيد يعمل في داخلهم عمل النور إذا دخل بيتاً ظلت زواياه طويلاً في العتمة؛ فالإيمان الحق لا يضيف إلى القلب معلومةً جديدةً فحسب، بل يعيد ترتيب مخزونه القديم كله، ويمر على التصورات الموروثة واحدةً واحدةً، فينقض باطلها ويصحح مختلها ويعيد الأشياء إلى أجماعها الحقيقية. ولهذا لم يقل أولئك الجن: آمنا ثم انتهى الأمر، بل شرعوا فوراً في مراجعة ما كانوا يعتقدونه وما كان يقوله سفهاؤهم، وكان القرآن أضاء لهم الماضي بعد أن أضاء المستقبل، فأروا فجأةً مقدار ما كان قد تسلل إلى وعيهم من أقوال لم تكن تليق بالله سبحانه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ
قالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾، والجدُّ هنا العظمة والجلال والرفعة والغنى، أي تعالت عظمة ربنا وجلاله عن كل نقص، وعن أن يلحقه شيء من أوصاف المخلوقين وحاجاتهم. وهذه البداية في غاية الدقة؛ لأن نفي الولد والصحابة ليس مجرد تصحيح لمعلومة عقديّة منفصلة، بل ثمرة لمعرفة الله على الوجه اللائق به؛ فكلمها عظمُ الله في القلب استحال عليه أن يتصور فيه شيئاً من خصائص المخلوق المحدود، وكلها صح إدراك غناه المطلق انكشفت سخافة أن يُنسب إليه ما إنما يحتاج إليه الناقص المحتاج. ولهذا جاء التنزيه بعد التعظيم: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾؛ لأن القلب حين يعرف الله حق المعرفة لا يحتاج إلى مناقشة طويلة ليدرك أن من له ملك السماوات والأرض، ومن إليه افتقار كل شيء، ومن لا يعتريه نقص ولا يلحقه فناء، منزّه عن الصحابة والولد تنزيهاً يليق بكماله.

وهنا يكشف القرآن عن قاعدة دقيقة في بناء العقيدة: أن الانحراف في تصور الله لا يبدأ دائماً من إنكار وجوده، بل قد يبدأ من الإقرار به مع إساءة معرفته؛ وقد يكون الإنسان مقرأ برب العالمين ثم يحمل في تصوره عنه بقايا من تصورات البشر، فينسب إليه ما لا يليق بجلاله، أو يتخيله بعقلية المخلوق، أو يقيس أفعاله على قصور البشر. ولذلك كان تصحيح المعرفة بالله من أعظم أعمال الوحي، لأن كل عبادة تنبت من صورة ما يحملها القلب عن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

المعبود؛ فإذا صحت المعرفة صح الخضوع، وإذا اختلت المعرفة تسلل الخلل إلى العبادة ولو بقيت الألفاظ الدينية على الألسنة.

ثم ينتقل أولئك المؤمنون إلى اعتراف شجاع: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾. والشطط هو القول المتجاوز للحد، البعيد عن الحق، وفي هذه العبارة أدب عظيم في مراجعة الموروث؛ فلم يمنعهم اتماؤهم السابق إلى قومهم أن يسموا الباطل باسمه حين ظهر لهم النور، ولم يقولوا: هذه أقوال آبائنا فلا نجرؤ على مسها، ولا جعلوا قدم الفكرة حجةً لصحتها. إن الوحي حين يدخل القلب يمنحه شجاعة المراجعة، لأن الولاء للحق يصبح أعلى من الولاء للعادة، وأعلى من الهيبة الاجتماعية التي تجعل الإنسان يخشى أن يعترف بأنه كان مخطئاً.

وما أبلغ أن يصفوا القائل بـ السفیه، فالخطأ المتعلق بالله ليس خطأً عادياً؛ لأن أشد السفه أن يتجرأ المخلوق المحدود على مقام الخالق بما لا علم له به. وقد يمتلك الإنسان ذكاءً في شؤون الدنيا ثم يكون سفيهاً في أعظم قضية إذا تكلم عن الله بلا علم، فالسفه هنا ليس قلة المعرفة التقنية، بل اختلال الميزان حين يتعلق الأمر بالحق الأعلى. إنك قد ترى شخصاً بارعاً في الحساب والسياسة واللغة، ثم يتحدث في الله والغيب والدين بمنطق الظن والهوى، فيكون نصيبه من المعرفة الدنيوية واسعاً لكن ميزانه في أعظم قضية مضطرباً.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

والسورة بهذا تضع حداً أخلاقياً للكلام عن الله؛ فلا يكفي أن تكون الفكرة شائعة، ولا أن يقولها قوم كثيرون، ولا أن تناقلها أجيال حتى تصبح مألوفاً، بل يجب أن تُعرض على الوحي. وهذا ما أدركه أولئك الجن بعد سماع القرآن؛ اكتشفوا أن بعض ما كان يُقال بينهم لم يكن إلا شططاً، أي تجاوزاً للحق والحد. وكأن في الآية دعوة لكل إنسان أن ينظر في الأفكار التي ورثها: كم منها دخل قلبه فقط لأنه سمعه طويلاً؟ وكم منها اكتسب قداسة العادة لا برهان الحقيقة؟ وكم قولاً يتناقله الناس عن الله والدين والمصير لو عُرض على النص الصريح لسقطت عنه مهابة السنين في لحظة؟

ثم يواصلون مراجعة نفوسهم بقدر من الصدق يدهش القارئ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. لقد كانوا ضخمة ثقة ساذجة في المتكلمين عن الله؛ ظنوا أن أحداً لن يبلغ به الجرأة أن يكذب على الله، فرّت عليهم الأقوال من غير فحص كافٍ. وهذه مشكلة إنسانية متكررة في كل عصر: أن بعض الباطل لا ينتشر لقوة حجته، بل لأن السامعين يستبعدون أن يتجرأ أحد على نسبته إلى الدين. فيدخل الكذب من باب حسن الظن، وتستقر الخرافة لأن الإنسان يقول في نفسه: لا يمكن أن يقول هؤلاء كلهم هذا بلا أصل، ولا يمكن أن يكون هذا الرجل الجليل قد تكلم في شأن الله بغير علم.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

لكن القرآن يربي العقل المؤمن على حسن الظن بالناس دون تعطيل ميزان التثبت؛ فليس كل من تكلم باسم الدين مصيباً، وليس كل ما اشتهر حقاً، ولا كل ما استقر في الذاكرة الجماعية وحيّاً. ومن هنا كانت قيمة أن يقول أولئك الجن: ﴿ظَنَّنَا﴾؛ إنهم يعترفون بأنهم لم يكونوا يملكون علماً، وإنما كانوا يبنون موقفهم على استبعاد الكذب. فلما جاء القرآن منحهم معياراً أعلى من الثقة العاطفية: معيار الوحي. وهذه لحظة من أنضج لحظات التحول الفكري؛ أن ينتقل الإنسان من سؤال: من قال؟ إلى سؤال: ما الدليل؟ ومن الاطمئنان إلى مكانة المتكلم إلى الاطمئنان إلى صدق القول.

وفي هذا المعنى تحرير بديع للعقل من أسر الأشخاص؛ فالؤمن لا يعبد العلماء ولا الدعاة ولا الموروثات، بل يستفيد منها كلها تحت سلطان الوحي. والحق لا يزداد حقاً لأن قائله مشهور، كما أن الخطأ لا يتحول صواباً لأن صاحبه محبوب. لقد تعلم أولئك الجن في جلسة واحدة مع القرآن ما يحتاج بعض البشر إلى عمر كي يتعلموه: أن قداسة الله تقتضي ألا يُنسب إليه شيء إلا بعلم.

ثم تأتي الآية التي تهدم واحداً من أعمق الأوهام التي أحاطت بعلاقة البشر بالجن عبر التاريخ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾. هنا تصبح السورة أكثر من حديث عن إيمان الجن؛ تصبح عملية تحرير للإنسان نفسه من خوفه منهم.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

فقد كان من عادة بعض أهل الجاهلية إذا نزل أحدهم وادياً أن يستعيذ بسيد ذلك الوادي من الجن، متوهماً أنه يستجير بقوة خفية تحميه مما يخاف، فجاء القرآن ليكشف نتيجة هذا المسلك بكلمة واحدة ثقيلة: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

إن الاستعاذة في حقيقتها ليست مجرد كلمة؛ إنها إعلان عن موضع الأمان في القلب. حين يقول العبد: أعوذ بالله، فهو يقرر أن قوته لا تكفيه، وأن هناك مخاوف لا يملك دفعها وحده، ثم يضع ضعفه كله في حماية من لا يعجزه شيء. ولهذا كانت الاستعاذة عبادة قلبية عظيمة، لأنها تجمع الإقرار بالضعف والإقرار بكمال قدرة الله. أما إذا نقلها الإنسان إلى مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، فإنه لا يجد الأمان الذي يبحث عنه، بل يدخل دائرة أوسع من الخوف؛ لأن من تعلق قلبه بمخلوق خوفاً أو رجاءً صار أسيراً له.

وهذا ما تنعنه الآية على نحو يهز القلب: الذين استعاذوا بالجن بحثاً عن الأمان زادهم ذلك رهقاً. أرادوا الطمأنينة فصدوا مزيداً من الخوف، وأرادوا أن يخففوا عن أنفسهم عبء المجهول فصار المجهول أثقل، وأرادوا حماية من قوى خفية فصاروا أكثر خضوعاً لها. إنها سنة نفسية قبل أن تكون مجرد واقعة تاريخية: كل تعلق بغير الله فيما لا يملكه إلا الله يضاعف قلق القلب، لأن المخلوق الذي علق الإنسان أمنه به يصبح مصدر تهديد دائم؛

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

يخشى غضبه، ويحسب حساب رضاه، ويراقب إشاراته، ويبالغ في قوته، حتى يتسع في النفس أكبر من حجمه الحقيقي.

وما أكثر صور الرهق التي تنشأ حين يبتعد القلب عن التوحيد؛ رهق الخوف من العين والسحر حتى يتحول كل عارض إلى تفسير غيبي، ورهق التعلق بالكهان والعرافين، ورهق قراءة المستقبل في الإشارات والأوهام، ورهق البحث عن وسائل غير مشروعة لمعرفة ما أخفاه الله. وما كان الله ليحرم هذه الطرق على عباده ليتركهم بلا حماية، بل نهاهم عنها لأنه أراد أن ينقلهم من أبواب المخلوقين الضيقة إلى بابه الواسع، ومن خوف متشعب إلى توكل واحد، ومن متاهة الاحتمالات إلى يقين: حسبنا الله.

وسورة الجن في هذه الآية لا تضخم الجن، بل تنزع عنهم التضخم؛ فهم لا يستحقون أن يتحولوا إلى موضوع دائم للفرع. القرآن لا ينكر وجودهم، لكنه يردهم إلى حجمهم العقدي الصحيح: مخلوقات مكلفة، منها الصالح ومنها دون ذلك، لا تعلم الغيب استقلالاً، ولا تملك للإنسان نفعاً ولا ضرراً إلا بما شاء الله، ولا يجوز أن تُرفع في الوعي إلى منزلة تجعل القلب يرتجف أمامها أكثر مما يخشى الله. وهذا من أجل وجوه التوحيد: أنه لا ينكر وجود الأسباب والمخلوقات والقوى، لكنه يضعها كلها في مرتبتها تحت سلطان الله.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

إن الإنسان الموحد لا يعيش في كون خالٍ من المخاطر، ولكنه يعيش في كون ليس فيه خطر مستقل عن الله؛ وهذه المسافة بين الجملتين هي المسافة بين الطمأنينة والرهق. فالمؤمن يعرف أن هناك أذى وأن هناك مخلوقات وأن هناك أسباباً، لكنه يعلم أن المشيئة العليا واحدة، وأن كل شيء تحت قهر الله، ولذلك لا يتحول الخوف عنده إلى عبادة للمخوف. يستطيع أن يأخذ بالأسباب ويقرأ الأذكار المشروعة ويتحصن بالله، ثم يمضي في حياته دون أن يجعل للوساوس عرشاً داخل صدره.

ثم تأتي الآية السابعة: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، فتلتقي ضلالات الإنس والجن في جذر واحد: سوء الظن بالله وانغلاق الأفق عن احتمال الوحي والبعث والرسالة. والمفسرون يذكرون في معنى البعث هنا وجوهاً، ومنها بعث الرسول، ومنها البعث بعد الموت، والسياق يحتمل ما يلتقي عند أصل واحد: أن طائفة من الإنس والجن استبعدت أن يتجدد اتصال السماء بالأرض برسالة، أو أن يبعث الله الخلق بعد موتهم. وفي كلتا الحالتين يكشف القرآن عن آفة فكرية خطيرة: أن يحول الإنسان حدود تجربته إلى حدود لقدرة الله.

كم مرة يقع العقل في هذا الخطأ وهو لا يشعر؟ يرى شيئاً لم يحدث في تجربته فيقول: لن يحدث؛ ويرى نظاماً مستقراً فيظن أنه أبدي؛ ويعتاد شكلاً من الحياة حتى لا يعود قادراً

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

على تصور انقلابها. وهكذا ينشأ إنكار البعث أحياناً من أسر العادة؛ لأن الإنسان يرى الموت ولا يرى بعينه العودة، فيتوهم أن ما لم يشاهده مستحيل، وينسى أنه لم يشاهد خلقه الأول أيضاً. وينشأ استبعاد الوحي من المنطق نفسه؛ فقد يعيش الناس زمناً طويلاً بلا نبي جديد، فيظنون أن السماء لن تتكلم مرة أخرى. لكن قدرة الله لا تقاس بعمر التجربة البشرية، وما استقر في عادتنا لا يقيّد مشيئته.

ولذلك تتناغم هذه الآية مع أول السورة على نحو بديع؛ فالذين ظنوا أن الله لن يبعث أحداً، جاءهم القرآن نفسه شاهداً على فساد ظنهم. الوحي الذي استبعده صار الآن كلاماً يسمعه الجن ويؤمنون به. وهذا من طرائق القرآن العجيبة في نقض الباطل: لا يكتفي دائماً بالجدال معه، بل يجعل الواقع نفسه ينهار فوقه. ماذا يبقى من قول من قال: لن يبعث الله أحداً، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يقرأ الوحي، والجن يسمعون ثم يعودون إلى قومهم به؟

والآية تربي القلب على الحذر من كلمة لن حين تتعلق بقدرة الله. كم من إنسان يحكم على المستقبل من ضيق حاضره فيقول: لن تتغير الحال، لن يأتي الفرج، لن يهتدي هذا، لن ينصلح ذاك، لن تعود الأمة، لن يفتح الله باباً. ليست كل هذه الأحكام كفرًا ولا من جنس إنكار البعث بالطبع، لكن بينها وبين الآية درساً تربوياً مشتركاً: لا تجعل حدود

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

تصورك ميزاناً لوسع القدرة الإلهية. أنت ترى اللحظة، والله يرى الطريق كله، وأنت تحكم بما
ظهر، وهو يدبر بما غاب عنك.

وهكذا تكشف هذه الآيات الخمس رحلة عميقة في تطهير العقيدة؛ تبدأ بتعظيم الله وتنزيهه
عن الصاحبة والولد، ثم تفضح جرأة السفهاء الذين يقولون عليه شططاً، ثم تعلمنا ألا نقبل
الأقوال في شأنه لمجرد ثقتنا بقاتليها، ثم تحرر الإنسان من الاستعاذة بالجن ومن عبودية
الخوف، ثم تهدم وهم استبعاد بعث الله لمن يشاء. وكل خطوة منها تعيد بناء شيء في
الداخل: تصور الله، مصدر المعرفة، وزن الأشخاص، موضع الأمان، وحدود العقل أمام
القدرة الإلهية.

ولعل الجامع بين هذه الآيات كلها هو أن التوحيد ليس جملةً تُقال، بل نظامٌ تحرير شامل
للعقل والقلب؛ حين يوحد الإنسان الله حقاً يتحرر من الكذب عليه، ومن تصديق كل من
يتكلم باسمه، ومن الرهبة المرضية من عالم الجن، ومن الاستسلام للظنون، ومن قياس الغيب
على المشاهد. وكلما ازداد الله عظمة في القلب تقلصت الأصنام الخفية من حوله؛ لأن
القلب لا يحتمل عظمتين مطلقتين، فإذا امتلأ القلب بتعظيم الله رجعت المخلوقات إلى
أحجامها.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

لقد بدأ أولئك الجن بقولهم: ﴿فَأَمَّا بِهِ﴾، ثم ها نحن نرى الإيمان وهو يعمل: يصحح

الماضي، ويسمي الباطل، ويعيد فحص الموروث، ويفك أسر الخوف، ويهدم الظنون. وهذه

علامة الإيمان الحي؛ أنه لا يسكن في زاوية معزولة من النفس، بل ينتشر في التصورات

كلها كما ينتشر الضوء في الغرفة، حتى لا يترك موضعاً كان يسكنه الوهم إلا دخله.

وفي آخر هذا الفصل يظل معنى واحد عالقاً بالقلب: من عرف الله حقاً، صغر في عينه كل

ما سواه دون أن ينكر وجوده أو أثره؛ لكنه لا يمنحه من قلبه ما هو حق لله وحده. ومن

هنا سينتقل بنا القرآن في الفصل الآتي إلى مشهد آخر مدهش: الجن الذين كانوا يصعدون

إلى السماء طلباً للسمع، فإذا بالنظام الكوني قد تغير، والحراسة قد اشتدت، والشهب قد

ملأت المراصد؛ وكأن ميلاد الرسالة لم يكن حدثاً أرضياً فحسب، بل حدثاً تبدلت معه

حتى طرق السماء.

الفصل الثالث

حين تتغير أبواب السماء

الآيات الثامنة إلى العاشرة

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَةً فَخَشَا شَدِيدًا وَشُهَابًا ۖ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ
لِلسَّمْعِ فَكُنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ۖ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

بعد أن طهر القرآن تصور أولئك الجن عن الله، وصحح علاقتهم بالمرورث والخوف والغيب،
ينتقل بهم إلى مراجعة حدث كوني كانوا قد لمسوا آثاره قبل أن يعرفوا سببه؛ فالسماء التي
ألفوا منها حالاً صارت على حال أخرى، والطريق الذي كانوا يعرفون بعض مقاعده لم يعد
مفتوحاً كما كان، والحراسة اشتدت، والشهب أصبحت بالمرصاد، وكأن العالم من فوقهم
كان يعلن أن شيئاً عظيماً وقع، قبل أن يدركوا أن هذا الشيء هو نزول القرآن وبعثة محمد
صلى الله عليه وسلم. وهنا تفتح السورة للقلب باباً مهيباً إلى معنى الرسالة: ليست الرسالة
حادثة بشرية صغيرة وقعت في بقعة من الأرض ثم مضت، بل حدث اصطفاء إلهي اقتضى

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

من حفظ الوحي أن تُصان طريقه، وأن يُحرس الخبر المنزل من كل التباس حتى يبلغ الناس صافياً كما أراد الله.

يقولون: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾، واللفظ يشي بال محاولة والطلب والقرب؛ فهم لم يكونوا يتحدثون عن السماء بوصفها صورة شعرية، بل عن مجال كانوا يحاولون بلوغه والاستماع من جهته، ثم اكتشفوا أن ما عرفوه قد تغير: ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُبَّاءَ﴾. كلمة ﴿مُلْتَأَ﴾ ترسم كثافة الحراسة؛ ليست عارضة ولا هامشية، بل كأن أبواب السماء قد امتلأت رقباءً وحماية، ثم جاء وصف الحرس بـ ﴿شَدِيدًا﴾ ليؤكد أن الأمر ليس منعاً يمكن التحايل عليه، وإنما حراسة بأمر الله لا تنفذ خلالها إرادة مخلوق.

وفي هذه الصورة معنى عقدي عظيم: أن الوحي الذي يصل إلى الإنسان ليس كلاماً مجهول المصدر تسرب من عالم غامض، وإنما خبر محفوظ بعناية الله. وما أكثر ما يحتاج القلب إلى هذا المعنى؛ لأن القرآن حين يخبره عن الله والآخرة والملائكة والقدر والمصير فإنه يخبره عن أشياء لا يستطيع الإنسان اختبارها بمعمله ولا رؤيتها بعينه، ولذلك كانت الثقة بمصدر الخبر أصلاً من أصول اليقين. والسورة هنا تفتح لنا مشهداً من وراء الحس لتقول: إن الذي تولى إنزال هذا الوحي هو الذي تولى حفظ طريقه، فلا تتصور السماء فضاءً فوضوياً تختلط فيه

الأخبار، بل هي تحت سلطان من أحصى كل شيء عدداً.

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

والشهب التي تذكرها الآية ليست مادةً لتوسيع الخيال أو بناء القصص التي لم يخبرنا بها الوحي، وإنما علامة على المنع والحراسة، والقرآن لا يطلب منا وراء ذلك أن نخترع تفاصيل عالم لم نؤت مفاتيحه. ومن تمام الأدب مع الغيب أن نقف حيث وقف النص؛ فلا نحول الآيات إلى منصة لتغذية شغف الإنسان بالمجهول، لأن العبرة ليست في رسم خرائط السماء الخفية، وإنما في الإيمان بأن الغيب ليس مباحاً لكل طالب، وأن ما شاء الله ستره لا تفتحه مهارة مخلوق، وأن إرادة الله إذا أغلقت باباً فلا يدُ في الوجود تستطيع أن تفتحه من ورائه.

ثم يقولون: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾، والاعتراف هنا يكشف لنا أن لهم تجربة سابقة، وأن التغيير لم يكن وهمًا؛ كانوا يعرفون مقاعد اعتادوا منها السمع، ثم وجدوا أن الحال قد تبدلت. وتظهر دقة التعبير في ﴿كُنَّا﴾ التي تضع هذا كله في زمن مضى، ثم في ﴿الآن﴾ التي تفصل بين مرحلتين: ﴿فَنَنْسَمِعُ الْآنَ يَجِدُ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾. وكأن كلمة واحدة، الآن، تحمل فاصلة تاريخية كبرى؛ ما كان قبل البعثة ليس كما صار بعدها، والطريق القديم لم يعد صالحاً، ونظام الحفظ قد أحكم، لأن مرحلة جديدة في تاريخ الهداية قد بدأت.

ولفظ ﴿رَصَدًا﴾ يرسم الشهاب في موقع انتظار لا في حركة عشوائية؛ شيء موضوع بالمرصاد لمن يحاول الاستماع، وهذا يضيف إلى المشهد معنى التدبير والدقة. فالكون في

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

القرآن ليس آلة تدور بلا مقصد، بل خلق تحت أمر الله، وتتصل أجزأؤه بحكمته وإن جهل الإنسان كثيراً من وجوهها. السماوات والأرض لا تتحرك خارج سلطان الله، وما نراه من قوانين ليس استقلالاً عن الخالق بل أثر من آثار سننه وإرادته. ولهذا لا يشعر المؤمن وهو يقرأ هذه الآيات أنه أمام عالَمين منفصلين: عالم دين في الكُتاب، وعالم كون في الخارج؛ بل أمام رب واحد يدبر الجميع، ينزل الوحي ويقيم له ما شاء من الحراسة، ويجعل في خلقه من العلامات ما يشهد لهيئته المطلقة.

وثمة معنى آخر شديد التأثير: إن الشياطين كانوا يطلبون شيئاً من خبر السماء ليس لهم أن يأخذوه، فأغلقت أمامهم المنافذ؛ أما الإنسان فقد فتح الله له من الوحي ما يحتاج إليه من خبر الغيب بلا اقتحام ولا تحايل. أي تكريم هذا الذي نغفل عنه؟ بشر يمشي على الأرض، ضعيف الجسد، محدود الحواس، ثم يفتح الله له القرآن فيعلم به عن بدء الخلق، وعن الملائكة، وعن الجنة والنار، وعن سنن الله، وعن اليوم الآخر، وعن أسماء ربه وصفاته، لا لأنه اقتحم حجاب الغيب، بل لأن الله تفضل عليه فأنزل إليه من العلم ما يصلح به قلبه وحياته. فالقرآن ليس مجرد نص في متناول اليد؛ هو نافذة أذن الله أن تفتح من الغيب إلى الإنسان.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وهنا يظهر الفرق الهائل بين الوحي والكهانة؛ الكهانة تتطلع إلى اختلاس ما لم يؤذن لها به، والوحي عطاء ينزل بإذن الله؛ الكاهن يطلب المجهول لمصلحة فضول أو سلطة أو منفعة، والني يتلقى ما أمره الله أن يبلغه ليهدي الناس؛ الأول يتحرك من الأرض محاولةً اقتحام الغيب، والثاني يأتيه خبر الغيب من عند ربه. ولهذا كان الإسلام صارماً في قطع الطريق على الكهان والعرافين، لأن حقيقة الإيمان بالغيب ليست البحث عن كل مجهول، بل التسليم بأن للغيب مالكا، وأن المعرفة به حق لله يطلع منها من يشاء على ما يشاء.

ثم تأتي الآية العاشرة لتكشف عن تواضع معرفي جميل في خطاب الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. لقد رأوا التغيير، لكنهم لم يعرفوا تفسيره بعد، فاعترفوا: ﴿لَا نَدْرِي﴾. ما أجمل الجهل حين يكون صادقا، وما أقبح المعرفة حين تكون مدعاة! إن من علامات العقل السليم أن يعرف حدوده؛ لا يملأ الفراغ بالاختراع، ولا يحول الاحتمال إلى يقين، ولا يتكلم في الأسباب الخفية لمجرد أنه رأى آثاراً ظاهرة. كانوا يستطيعون أن ينسجوا حكايات كثيرة حول امتلاء السماء حرساً وشبهاً، لكنهم توقفوا عند ما يعلمون وقالوا فيما لا يعلمون: لا ندري.

وهذه التربية شديدة الحاجة في زمن يصعب فيه على كثير من الناس قول لا أعلم، فالإنسان يميل إلى إغلاق الفراغ المعرفي بأي تفسير، ويأنف أن تبقى أمامه مساحة مجهولة. لكن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

القرآن يجعل الاعتراف بالجهل جزءاً من الأمانة؛ لأن العلم ليس أن يكون عندك جواب لكل شيء، بل أن تميز بين ما تعلم وما تظن وما تجهل. وكم من فتنة ولدت لأن شخصاً لم يحتمل أن يقول لا أدري؛ فحوّل ظنه إلى خبر، ثم انتقل الخبر إلى آخر، حتى صار الوهم يقيناً اجتماعياً لا أصل له.

والأدق من ذلك أنهم حصروا الاحتمال في وجهين: ﴿أَشْرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾؛ رأوا حدثاً فوقهم، لكنهم أحسوا أن أثره متصل بأهل الأرض. وهذا يكشف أنهم فهموا أن الحراسة الجديدة ليست عبثاً، وأن وراءها أمراً يتعلق بمصير البشر. كانت السماء قد تغيرت لأن الأرض على وشك أن تسمع كلاماً جديداً، بل لأن أعظم خطاب هداية في تاريخ الرسالات قد نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم.

ولفتة التعبير في قوله: ﴿أَشْرُّ أُرِيدَ﴾ بالبناء لما لم يسم فاعله، ثم قوله: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ بإسناد إرادة الرشد صراحة إلى الرب، من دقائق الأدب التي توقف عندها أهل العلم؛ فالجن المؤمنون، وهم في أول مدارج معرفتهم، ينسبون الرشد إلى الله تصريحاً، فيظهر في العبارة أدب مع الرب وتعظيم له. وهذا لا يخرج شيئاً عن سلطان الله ومشيتته، فكل شيء بقضائه، ولكنه أدب في العبارة يعلم القلب كيف يتحدث عن ربه بما يليق بجلاله.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

وما أجمل عودة كلمة ﴿رَشْدًا﴾ هنا بعد أن قالوا في أول السورة: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾؛

كأن السورة تربط بين الحدث الكوني وبين ثمرة القرآن. كانوا في البداية لا يدرون: هل الذي يجري مقدمة شر أم إرادة رشد لأهل الأرض؟ ثم سمعوا القرآن فعرفوا الجواب: هذا هو الرشد الذي كانت السماء تتهيأ لحفظه، وهذا هو النور الذي من أجله تغيرت أحوال السمع، وهذا هو الخير الذي لم يكونوا يعرفون اسمه ثم وجدوه في الكتاب.

وهنا يظهر معنى بالغ الجمال: قد ترى التغير قبل أن تعرف الرحمة المختبئة فيه. أولئك الجن رأوا إغلاق منافذ اعتادوها، وربما بدا لهم الأمر شديداً ومقلقاً، ولم يعرفوا في أول الأمر أشر أريد بأهل الأرض أم رشد؛ ثم انتهت بهم الحراسة نفسها إلى لقاء القرآن. ما ظنوه حاجزاً صار علامة تقودهم إلى أعظم هداية. وهذه سنة في حياة الإنسان أيضاً، وإن كان لا يجوز أن نسقط تفاصيل الغيب على الوقائع بلا دليل؛ لكنه معنى إيماني عام صحيح: ليس كل باب يُغلق شراً، ولا كل اضطراب تراه في أول الطريق يحمل معناه النهائي معه. قد يغلق الله عنك طريقاً لأن وراء إغلاقه إعادة توجيه إلى طريق أصفى، وقد تشعر أن ترتيباً مألوفاً قد اختل، ثم لا تفهم إلا بعد حين أن ما ظننته فقداً كان أول فصول الهداية.

لكن الآيات قبل أن تمنحنا هذا التأمل تضع له ميزاناً مهماً: لا تجزم بما لا تعلم. هؤلاء قالوا:

﴿لَا نَدْرِي﴾، حتى جاءتهم المعرفة. والمؤمن لا يحول كل مصيبة إلى قصة تفصيلية عن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

حكمة الله من عند نفسه، فيقول: فعل الله بك كذا لأجل كذا، ما لم يملك دليلاً؛ وإنما يعلم إجمالاً أن الله حكيم، وأن قدره لا يخرج عن علمه ورحمته وعدله، ثم يترك تفاصيل الحكمة لله إن لم تظهر له. وهذا فرق عظيم بين اليقين بحكمة الله وبين الادعاء بمعرفة كل أسرار حكمته.

لقد كانت الحراسة إذن تمهيداً لحماية الرسالة، وكان المنع من الاستماع إعلاناً بأن للغيب حدوده، وكان قولهم ﴿لَا نَذْرِي﴾ إعلاناً بأن المخلوق مهما بلغ يبقى محاطاً بجبهله، ثم كان القرآن نفسه هو الجواب الذي أضاء المشهد كله. وهكذا تسحب السورة من الجن أي صورة متضخمة صنعها الخيال البشري لهم؛ فهم لا يعلمون ما وراء الحدث قبل أن يخبرهم الله، ولا يتجاوزون ما حُجب عنهم، ولا يستطيعون اختراق السماء إذا حُرست، ولا يملكون لأنفسهم أن يعرفوا حتى هل ما حدث بالأرض شر أم رشد. فكيف يتوجه إليهم إنسان يطلب منهم علماً غيبياً أو حمايةً مطلقة وهم أنفسهم يقولون بوضوح: ﴿لَا نَذْرِي﴾؟

وهنا تنهار الخرافة من داخل النص؛ لا يحتاج القرآن إلى خطاب طويل ليقول للإنسان: لا تتعلق بالجن، بل يجعل الجن أنفسهم يعترفون بعجزهم وحدود علمهم. يطرقون السماء فيمنعون، يسمعون فيجدون الشهاب بالمرصاد، يرون التغيير فلا يعرفون سببه، ثم لا يهتدون إلى الحقيقة إلا حين يسمعون القرآن. إنها صورة تقلب ميزان التصور كله: المخلوق الذي

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

خافه الإنسان قروناً محتاج هو أيضاً إلى الوحي، والمخلوق الذي نُسب إليه كشف الغيب يقف عاجزاً أمام ما حجب الله عنه، والمخلوق الذي ظُن أنه مصدر أسرار يصبح طالب هداية كغيره من عباد الله.

ومن أوسع دروس هذا المقطع أن العلم نفسه عبودية؛ لا تعرف إلا ما أذن الله أن تعرفه، ولا ترى إلا ما فتح لك من أبواب الرؤية، ولا يبلغ عقلك إلا ما وسعه الله له من الفهم. وهذه الحقيقة لا تهين العقل بل تحفظه من الكبر؛ فالجهل الذي يعترف بنفسه يمكن أن يتعلم، أما الجهل الذي يتنكر في لباس المعرفة فيغلق بابه على صاحبه. ولهذا كان قول لا أدري في موضعه علامة نضج لا نقص، لأنه إقرار بأن الحقيقة أكبر من حدود الفرد.

ثم إن صورة السماء المملوءة حساً وشبهاً ترد القلب مرة أخرى إلى مهابة الوحي؛ نحن نقرأ القرآن أحياناً كما نقرأ كتاباً مألوفاً طال مقامه في الرف، لكن هذه الآيات تريد أن توقظ فينا شعور المصدر. هذا الكتاب الذي تمسكه اليد لم يولد من تجربة بشرية، ولم يصنعه عقل محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما نزل من عند رب العالمين، محفوظ الطريق، محفوظ التلقي، محفوظ البلاغ بما شاء الله. فكيف يصبح كلام السماء مألوفاً إلى الحد الذي لا يرتجف له القلب؟ وكيف يمر الإنسان على الآية سريعاً وهو يعلم أن خلفها هذا الامتداد كله من الغيب إلى الأرض؟

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

ربما كانت المأساة الكبرى ليست أن القرآن بعيد عنا، بل أن قربه الشديد جعلنا ننسى عظمته؛ تفتح المصحف في لحظة وتصل إلى كلام رب العالمين، بينما هؤلاء الجن تغيرت عليهم طرق السماء، ثم طاف بهم الطلب حتى وقفوا فجأة أمام صوت يتلو القرآن، فقالوا مبهورين: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾. إن سهولة الوصول إلى النعمة لا ينبغي أن تنقص من قدرها، بل ينبغي أن تزيد الحياء من التفريط فيها.

وينتهي هذا الفصل وقد اتضحت أمامنا ثلاثة معالم كبرى: الوحي محفوظ، والغيب محدود المنفذ، والمخلوق محدود العلم. أما الذي يحفظ الوحي ويملك الغيب ويعلم ما خفي وما ظهر فهو الله وحده. وكلما ازداد القلب وعياً بهذه الحدود صار توحيده أنقى؛ فلا يرفع مخلوقاً فوق منزلته، ولا يطلب من عالم مستور ما لم يجعله الله له، ولا يحاول أن يعوّض نقص المعرفة بالخرافة، بل يمشي على قدر النور الذي أعطاه الله.

وسوف نتقنا الآيات التالية من حدود المعرفة إلى تنوع الخلق نفسه؛ فالجن الذين قد يتخيلهم الإنسان كلمة واحدة سيقولون عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، لتهدم صورة أخرى من صور التعميم، ويظهر أن ميزان الله لا يقسم العالم إلى إنس وجن بقدر ما يقسم المكلفين إلى استقامة وانحراف، وإسلام وقسط، وطريق إلى الرشد وطريق إلى جهنم.

الفصل الرابع

حين تتوزع المخلوقات على قدر استجابتها

الآيات الحادية عشرة إلى الخامسة عشرة

﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُفَّاءُ طَرَائِقَ قِدْدًا ۖ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنَ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنَ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ۖ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَنُ يُؤْمِنُ رَبِّهِ ۖ فَلَا يَخَافُ بُخْسًا وَلَا رَهَقًا ۖ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَنُ أَسْلَمَ فَأُولُكُ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

بعد أن أطلعنا السورة على حدود الجن أمام الغيب، وبعد أن رأيناهم يعترفون بأن السماء قد حُرست وأنهم لا يدرون ما أريد بأهل الأرض حتى جاءهم القرآن بالجواب، تبدأ الآن مرحلة أخرى من التصحيح؛ فالقرآن لا يحرر الإنسان فقط من توهم أن الجن يعلمون الغيب، بل يحرره كذلك من تصورهم جنسًا واحدًا ذا طبيعة أخلاقية واحدة. إنهم، كما يقررون عن أنفسهم، مختلفون في المواقف والمنهج والاستجابة، وفيهم الصالح ودون الصالح، والمسلم والقاسط، والمستقيم والمنحرف، حتى يصبح الميزان الذي يزنهم به الوحي هو الميزان

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

نفسه الذي يزن به الإنسان: القرب من الله أو البعد عنه، والاستجابة للحق أو الإعراض عنه.

قالوا: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، وهي عبارة تهدم في كلمات قليلة ذلك الميل البشري القديم إلى تحويل الجماعات إلى قوالب مغلقة؛ فالإنسان يحب الاختصار، ومن شدة حاجته إلى تصنيف العالم قد يظلم حقائقه، فيرى جماعة فيجعلها كلها شيئاً واحداً، ويعرف نموذجاً فيحكم به على الجنس كله. لكن الوحي أكثر عدلاً من أحكامنا المتعجلة؛ إنه يرد كل مخلوق إلى مسؤوليته الفردية، ولا يجعل الانتساب إلى جنس أو قوم أو بيئة حكماً نهائياً على القلب.

وإذا كانت السورة تتحدث عن الجن، فإن الدرس يمتد بطبيعته إلى الإنسان؛ فما أكثر ما تصنعه التعميمات من ظلم حين تحجب الفرد خلف اسم الجماعة، أو تجعل الانتماء بديلاً عن النظر في العمل. القرآن يعلننا هنا أن الاختلاف الأخلاقي والديني قد يقع داخل الجنس الواحد، بل داخل البيئة الواحدة، ولذلك لا يصح أن يُنظر إلى الناس كما لو كانوا نسخاً متطابقة. قد ينشأ اثنان في البيت نفسه، ويعبران الطريق نفسه، ويسمعان الخطاب نفسه، ثم يذهب قلب هذا إلى جهة وقلب ذاك إلى جهة أخرى. فالإنسان ليس مجرد نتيجة آلية

للمكان الذي نشأ فيه؛ في داخله مساحة التكليف والاختيار التي عليها تقوم المحاسبة.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

ثم يشرحون هذا التفاوت بقولهم: ﴿كُلُّ طَرَائِقٍ قَدَدٌ﴾، أي مذاهب وطرائق متفرقة مختلفة، من قول العرب للشيء المقطوع المتفرق: قَدَد. وكأن الآية ترسم مجتمعاً غير مرئي لكنه شديد الشبه بالمجتمع البشري من حيث اختلاف الاتجاهات؛ أفكار متعددة، ومناهج شتى، ومواقف متفاوتة من الحق. وليس تعدد الطرق في ذاته مدحاً، كما قد يتوهم من يجعل مجرد التنوع قيمة مطلقة؛ لأن السورة ستضع بعد قليل حداً فاصلاً بينها: طريق تحرّى الرشد، وطريق انتهى إلى جهنم. فالاختلاف واقع، لكنه لا يعني أن كل طريق يوصل إلى الغاية نفسها، ولا أن الحق يذوب لمجرد كثرة السبل.

وهنا ينكشف فرق بالغ الأهمية بين الاعتراف بالتنوع وتسوية الحق بالباطل؛ القرآن يعترف بأن المخلوقات طرائق قدد، لكنه لا يتنازل بسبب ذلك عن ميزانه. هناك صالح ودونه، ومسلم وقاسط، ورشد وانحراف، وثواب وعقاب. وهذا من عدل الوحي؛ لا يفرض على الواقع أن يكون متجانساً، لكنه لا يسمح للواقع المتنوع أن يفرض على الحق أن يصبح نسبياً. فالتناس قد يختلفون، لكن اختلافهم لا يجعل التناقضات كلها صواباً؛ وكثرة الطرق لا تغيّر حقيقة أن للوجود رباً واحداً، وأن العبادة له وحده، وأن من استجاب هداة الله، ومن جار عن الحق تحمل تبعه اختياره.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ
ثم يقولون: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾. وهنا يرتفع وعيهم

من معرفة حدود العلم إلى معرفة حدود القدرة؛ لقد عرفوا أنهم لا يملكون الإفلات من سلطان الله، لا بالإقامة في الأرض ولا بالهرب منها. والتعبير بالغ القوة؛ لأن بعض المخلوقين قد يغتر بما أوتي من خفة أو قوة أو قدرة على الانتقال، فيوهمه اتساع الحركة أنه يملك شيئاً من الاستقلال، لكن السورة ترد الأمر إلى أصله: قد تملك أن تهرب من مخلوق، أو تغفل من قبضة بشر، أو تختبئ عن عين، لكن أين تذهب من ملك الله؟

﴿أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي لن نفوته ولن نسبقه ولن نخرج عن قدرته حيثما كنا. ثم ﴿وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾؛ فحتى محاولة الفرار نفسها تقع داخل ملكه. إنها آية تقصم في القلب وهم الاستقلال، ذلك الوهم الدقيق الذي قد لا يظهر في كلمة صريحة، لكنه يسكن السلوك حين يتصرف الإنسان كما لو أن بينه وبين الله مسافات يمكن الاختباء فيها. قد يختبئ عن الناس، وقد يحسن صناعة الأعذار، وقد يغلق الأبواب، وقد يحو أثره، لكنه لا يستطيع أن يغادر علم الله لحظة واحدة.

وإذا استقر هذا المعنى في القلب تحولت المراقبة من عبء ثقیل إلى وعي صافٍ بالحقيقة؛ أنت لست في كون تستطيع أن تخرج منه، ولا في حياة توجد فيها زاوية خارج سلطان الله، فما أجمل أن يكون رجوعك إليه اختياراً قبل أن يصبح الوقوف بين يديه اضطراراً. إن من

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

أعظم الحماقات أن يستعمل المخلوق ما أعطاه الله من قدرة في محاولة عصيانه، ثم يتوهم أن القدرة التي منحه إياها خالقه يمكن أن تنقذه من خالقه. إنك تتحرك بقوته، وتتنوارى تحت سمائه، وتمشي على أرضه، ويجري نفسك بإذنه، ثم تريد أن تجعل من هذه النعم أدوات للبعد عنه! وما أضعف العبد حين يغتر بما لم يخلقه في نفسه.

ثم تعود السورة إلى نقطة التحول الأولى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾. لم يعودوا يسمون ما سمعوه هنا قرآنًا عجبًا فقط، بل يسمونه الهدى؛ وكأن التجربة قد نضجت في نفوسهم، فصاروا يعرفون القرآن بأثره الأعمق. إنهم لم يسمعوا كتابًا جميلًا فحسب، بل سمعوا الهداية نفسها وهي تُنلى. وهذا التعبير يجعلنا ننظر إلى القرآن بطريقة أخرى؛ حين تسمع آياته، فأنت لا تتعامل فقط مع ألفاظ ذات معان، بل مع طريق يريد أن يخرجك من الضلال إلى الرشد، ولهذا فإن السؤال بعد السماع يبقى واحدًا: ماذا صنعت بالهدى؟

قالوا: ﴿لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾؛ والسرعة نفسها التي رأيناها في مطلع السورة تتكرر هنا، وكأنهم يريدون تثبيت الشهادة على أنفسهم: لم تؤجل الحق بعد أن عرفناه. إن بعض الناس يظن أن مشكلة الإيمان كلها مشكلة براهين، بينما تكشف التجربة الإنسانية أن كثيرًا من المسافات الفاصلة بين الإنسان والحق ليست معرفية فقط؛ فقد يعرف ثم يتردد لأن للحق

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كلفة، وقد يقتنع ثم يتأخر لأن الهوى يطلب مهلة، وقد يرى النور ثم يخشى ما سيفقده لو مشى نحوه. أما هؤلاء فكانت سلامة الاستجابة عندهم جزءًا من جمال المشهد: سمعنا فأمنّا.

ثم يفيض أثر هذا الإيمان طمأنينةً في قلوبهم: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

والبخس هو النقص والظلم في الحق، والرهق هنا ما يلحق من ظلم أو عنت، والمعنى أن المؤمن بربه لا يخشى أن يُنقص من حسناته أو يحمل فوق ما يستحق؛ لأن الذي يتولى حسابه هو العدل سبحانه. وما أعظم أن تحول العقيدة هنا إلى أمان نفسي؛ فالإيمان بالله ليس مجرد إقرار بوجوده، بل ثقة في عدله، وطمأنينة إلى أن تعبك لن يضيع عنده، وأن ما قدمته لن يُنسى، وأن أحدًا لن يسلبك مثقال ذرة من خيرك.

هذه الطمأنينة علاج لواحد من أعمق مخاوف الإنسان: أن يضيع حقه. كم يتعب القلب حين يحسب أنه لن يُرى، أو أن إحسانه ذهب سدى، أو أن ظالمًا استطاع أن يطوي الحقيقة وينجو بها. لكن المؤمن يعيش تحت سقف أوسع من محاكم الأرض؛ يعرف أن هناك حسابًا لا تضيع فيه وثيقة، ولا تختفي فيه نية، ولا ينجو منه ظالم بحيلة، ولا يُخس فيه عامل شيئًا. ولذلك يمكنه أن يصبر حين تفوته بعض الحقوق الدنيوية، لا لأنه يحب الظلم أو يستسلم له، بل لأنه يعرف أن القضاء الأخير لم يصدر بعد.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ وما أوسع الفرق بين الخوف من الله والخوف من الظلم عند

الله. المؤمن يخاف مقام ربه، لكنه لا يخاف من ربه أن يظلمه؛ يخشاه لأنه عظيم، ويطمئن

إليه لأنه عدل. وهذه من أرق حالات العبودية: هابة لا تفسدها إساءة الظن، ورجاء لا

يلغيه الشعور بالمسؤولية. فالعبد يعرف أنه محاسب، لكنه يعرف كذلك أن الذي يحاسبه

أرحم به من أن يظلمه، وأعدل من أن ينقصه، وأعلم من أن تضيع لديه تفاصيل لم يعلمها

أحد.

ثم يقولون: ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾. وهنا ينتقل التقسيم من وصف عام:

صالحون ودون ذلك، إلى تقسيم أوضح في ضوء الموقف من الله: مسلمون وقاسطون.

والقاسط في لغة القرآن هو الجائر المائل عن الحق، بخلاف المقسط الذي يعدل. وبها لها من

دقة لغوية: زيادة حرف في المبنى تقابل اختلافًا جوهريًا في المعنى؛ قسط جار، وأقسط

عدل. وفي اختيار هذا اللفظ تصوير للضلال لا على أنه مجرد غياب للمعلومة، بل ميل

وانحراف عن الطريق المستقيم.

أما المسلمون فقال الله على لسانهم: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. والتعبير بتحرروا بالغ

الدلالة؛ فالتحري طلب الشيء وقصده بعناية. الإسلام هنا ليس سقوطًا عشوائيًا في طريق

من الطرق، بل اختيار وجهة الرشd، وبحثاً عنه، وسيراً نحوه. إن المستسلم لله قد اختار

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

الاتجاه الصحيح للوجود؛ جعل إرادته تحت أمر ربه، وحركته في طلب رضاه، وهكذا لا يكون الإسلام مجرد اسم يحمله الإنسان، بل جهة يقصدها.

ومن أجل ما في هذا التعبير أنه يربط الإسلام بالرشد للمرة الثالثة في السورة؛ في المطلع قالوا: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، ثم قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وهنا: ﴿فَأُولَٰئِكَ تَخَرُّوْا رَشَدًا﴾. وكأن كلمة الرشد خيط نور يمر في بناء السورة كله؛ القرآن يهدي إليه، والله يريد به لعباده، والمسلم يتحراه. فالهداية من الله، والطريق يبينه الوحي، وعلى العبد أن يختار أن يمشي. وهنا يتجلى التوازن البديع بين الهبة والمسؤولية؛ فالله هو الهادي، والقرآن هو الهدى، لكن العبد مأمور أن يتحرى الرشد ويستجيب له. لا مكان في القرآن لعقلية تجعل الإنسان مستقلاً عن فضل الله، كما لا مكان لعقلية تلغي مسؤوليته بحجة أن الهداية من الله. أنت فقير إلى الهداية في كل خطوة، ومع ذلك محاسب على موقفك منها حين تأتيك. وهذا التوازن هو الذي يحفظ القلب من كبر الاعتماد على النفس ومن كسل التعلل بالقدر في آن واحد.

ثم لا تترك السورة القسم الآخر معلقاً في عبارة مبهمة، بل تقول بصراحة: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾. هنا ينقلب المشهد من نعمة الرشد إلى هول المصير، لأن القرآن لا يخدع الإنسان بلغة مطمئنة تخفي عنه عواقب الطريق. إذا كان هناك رشد فهناك غي، وإذا

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كان هناك إسلام فهناك جور وإعراض، وإذا كان للقرار معنى فلا بد أن تكون له نتيجة. ومن رحمة الوحي أن يسمي النهاية قبل أن يصل إليها الإنسان، حتى لا يقول يوم القيامة إنه لم يكن يعلم إلى أين كان يسير.

وصفهم بأنهم ﴿لَهُمْ حَطَبًا﴾ يرسم نهاية مفزعة للمخلوق الذي كان يظن نفسه قويا أو خفيا أو قادرا على الإفلات؛ فإذا به ينتهي مادة للنار. وهنا ينهدم ما قد يبقى في الخيلة من تضخيم للجن؛ حتى من كفر منهم لا يملك شيئا أمام حكم الله، بل يصير كما يصير الكافر من الإنس إلى ما قضاه الله من العقوبة. فلا قوة خفية تنقذ صاحبها من الحساب، ولا طبيعة خلقية تمنح حصانة أمام العدل الإلهي. الميزان واحد، والرب واحد، والمصير يجري بحكم واحد.

ومن لطيف البناء أن السورة التي بدأت بتحرير الإنسان من الخوف من الجن، تجعل الجن أنفسهم الآن يعلنون خوفهم من عاقبة الانحراف؛ كأنها تقول للإنسان: لا تخف ممن يخاف الله وحسابه، ولا تجعل مخلوقا مثلك في العبودية أكبر من حجمه. الذين قد ترتجف النفس لمجرد ذكرهم يقولون عن أنفسهم: منا من أسلم، ومنا من جار، ومن جار فمصيروه جهنم. إنه انقلاب كامل في زاوية الرؤية؛ لا تنظر إليهم من جهة ما خفي عليك من طبيعتهم، بل انظر إليهم من جهة ما كشفه الله من حقيقتهم: عباد مكلفون تحت الحكم نفسه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

وهذه الآيات مجتمعة تنقلنا إلى واحدة من أعمق حقائق الإسلام: أن قيمة المخلوق ليست فيما يمتلك من خصائص، بل في علاقته بربه. ليس الشرف في أن تكون من جنس ظاهر أو خفي، قوي أو ضعيف، مشهور أو مغمور؛ إنما الشرف في الإسلام لله، وفي تحري الرشد، وفي الصلاح. وكل المقاييس الأخرى التي يتعالى بها الناس بعضهم على بعض تتهاوى أمام هذا الميزان. قد يكون المرء قليل الحظ من الدنيا لكنه عند الله من أهل الرشد، وقد يمتلك أسباباً يهابه الناس بها ثم يكون عند الله من القاسطين.

وفي قولهم ﴿مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ درس آخر في صدق الجماعات مع نفسها؛ لم يدعوا الطهر الجماعي، ولم يتجملوا الصورة، ولم يقولوا إن جنسهم كله على خير. وهذه نزاهة يحتاجها البشر في حديثهم عن أنفسهم وانتماءاتهم؛ فالنضج ليس أن تقول إن جماعتك كلها صواب، بل أن تجعل الحق معيارها ثم تعترف بمن أصاب وبمن أخطأ. كل هوية تتحول إلى ستار يحمي الخطأ من النقد تصبح صنماً صغيراً، أما الإيمان فيحرر صاحبه حتى من العصبية لنفسه.

ثم انظر إلى العلاقة بين ﴿لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ﴾ و﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ الأول يزرع المهابة، والثاني يزرع الطمأنينة. لن تهرب منه، لكنه لن يظلمك. أنت محاط بقدرته، ومحفوظ بعدله. وهذه من أعظم صور معرفة الله التي تبني قلباً مستقيماً؛ ليس قلباً يفر منه

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

لأنه يسيء الظن به، ولا قلباً يأمن مكره لأنه يغفل عن قدرته، بل قلب يعرف أنه لا مفر من الله إلا إليه، وأن اللجوء إلى الله هو الأمان من كل ما سواه.

هكذا يصبح التوحيد في هذه السورة حركة داخلية كاملة: حين تعرف أنك لا تعجزه تكف عن وهم الفرار، وحين تعرف أنه لا يخسك تكف عن سوء الظن، وحين تسمع الهدى تؤمن به، وحين تسلم تتحرى الرشد، وحين ترى مصير القاسط تعرف أن للحياة جدية لا تحتمل العبث. ليس الإيمان إذن طلاءً روحياً على سطح الوجود، بل تفسير شامل لمعنى أن تكون مخلوقاً بين بداية أوجدك الله فيها ونهاية تعود فيها إليه.

ولعل من أبلغ التأملات في هذا الفصل أن أولئك الجن، بعد أن منَعوا من مقاعد السمع في السماء، وجدوا الطريق الصحيح للمعرفة على الأرض حين سمعوا القرآن؛ كانوا يطلبون خبراً من فوق بطريقة لم تعد مأذوناً بها، فأعطاهم الله من الوحي ما هو خير لهم وأهدى، فانتقلوا من محاولة استراق شيء من الخبر إلى تلقي الهدى نفسه. وهذه نقلة عظيمة: ليس المهم أن تعرف ماذا سيحدث غداً، بل أن تعرف كيف تكون عبداً لله إذا جاء الغد. وليس المهم أن تكشف لك تفاصيل الغيب، بل أن تعرف من هو رب الغيب، وكيف تصل إليه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وهذه مشكلة الإنسان في كل زمان؛ يطلب أحياناً معرفة المستقبل أكثر مما يطلب صلاح نفسه للمستقبل، ويسأل: ماذا سيقع؟ قبل أن يسأل: ماذا ينبغي أن أكون؟ والقرآن يعيد ترتيب السؤال؛ ربما لا يخبرك بما سيأتي غداً، لكنه يعطيك من الإيمان ما يجعلك قادراً على عبور غدك أيّاً كان. وهذه هي الهداية الأعظم، لأن معرفة الأحداث لا تنجي القلب إن لم يعرف ربه، أما من عرف ربه فإنه يجد في معرفته به زاداً أمام ما يعرف وما لا يعرف.

وبذلك ينتهي هذا الفصل وقد انتقلت السورة من بيان اختلاف طرق الجن إلى الحسم في مصائر تلك الطرق: صالحون ودون ذلك، طرائق قدد، عاجزون عن الإفلات من الله، مستمعون للهدى، مؤمنون بربههم، مسلمون تحروا الرشد، وقاسطون صاروا لجهنم حطباً. إنها خريطة مختصرة لعالم التكليف كله، حيث لا قيمة للطريق لأنه موجود، بل بما ينتهي إليه؛ ولا يكفي أن تسير، بل يجب أن تسأل إلى أين.

وفي الفصل التالي ستنقل السورة من شهادة الجن عن أنفسهم إلى خطاب رباني مباشر يكشف سنة من سنن الله في الاستقامة والرزق والابتلاء، في قوله سبحانه: ﴿وَالْوَلِيُّ اسْتَغَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنَفْتَنَّهُمْ فِيهِ﴾؛ وهناك ستظهر مفاجأة أخرى من مفاجآت السورة: أن وفرة النعمة ليست دائماً علامة الرضا، وأن العطاء نفسه قد يتحول إلى امتحان يزن حقيقة القلب.

الفصل الخامس

حين تكون النعمة امتحاناً ويكون المسجد إعلاناً للتوحيد

الآيات السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة

﴿وَالْوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا ۖ لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ۖ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

بعد أن عرضت السورة اختلاف الجن بين مسلم وقاسط، وبين متحرٍّ للرشد ومنتبهٍ إلى جهنم، تنتقل فجأة من وصف الأشخاص إلى كشف قانون من قوانين الطريق نفسه؛ كأنها تقول: ليست القضية أن تعرف فقط من اهتدى ومن ضل، بل أن تعرف كذلك ماذا تصنع الاستقامة بالإنسان، وماذا تصنع النعمة به، وكيف يمكن أن يتحول العطاء الذي يحبه إلى امتحان يكشف حقيقة قلبه. وهنا تبرز واحدة من أدق القضايا التربوية في القرآن: أن النعمة ليست دائماً شهادة رضا، كما أن الضيق ليس دائماً علامة سخط، وأن العطاء قد يكون أحياناً أشد امتحاناً من المنع، لأن الحرمان يوقظ الافتقار، أما الوفرة فقد تنفخ في القلب وهم الاكتفاء.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

يقول سبحانه: ﴿وَأَلِّوْا اسْتِقَامًا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾. والاستقامة هنا ليست

حركة لحظة، بل ثبات على الطريق؛ لا اندفاعاً عاطفياً يلعب ثم يخبو، ولا توبة موسمية، ولا طاعة مشروطة بانسراح الحال، بل إقامة للنفس على المنهج الذي أَرَادَهُ اللهُ. وكلمة ﴿الطَّرِيقَةِ﴾ توحى بمسار ممتد، له اتجاه ومعالم وغاية، فالعبد لا يطلب ومضة هداية ثم يعود إلى هواه، وإنما يضع خطواته في طريق يظل يمشيه حتى يلتقى الله. ولعل من أعظم الفروق بين الانفعال الديني والاستقامة أن الأول قد يبدأ قوياً ثم يتلاشى، أما الاستقامة فهادئة، متكررة، يومية، لا تدهش الناس غالباً، لكنها عند الله أبقي وأصدق.

وقد ذكر المفسرون أن المراد بالاستقامة على الطريقة الاستقامة على طريق الحق والإسلام، وأن الماء الغدق هو الماء الكثير الواسع، وهو في بيئة العرب أصل من أصول السعة والحياة والخصب. فلما هنا ليس مجرد مشهد طبيعي، بل رمز قرآني للرزق الواسع والحياة التي تمتد في الأرض بعد الجذب. غير أن الآية لا تسمح لنا أن نأخذ نصف المعنى ونغفل نصفه الآخر؛ فقد يأتي إلى ذهن القارئ أن الاستقامة تعني بالضرورة حياة رياء دنيوي مطلق، فإذا بالآية التالية تقطع هذا الفهم الساذج مباشرة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾. نعم، قد يفتح الله على عبده من النعمة، لكن العطاء ليس دائماً نهاية القصة؛ قد يكون بدايتها الحقيقية.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وما أعمق هذه الجملة القصيرة: ﴿لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾. الماء الذي يحيي الأرض قد يمتحن القلب، والرزق الذي يوسع البيت قد يضيق الروح إن أسيء حمله، والمال الذي يفتح الأبواب قد يغلق باب الافتقار إذا نسي صاحبه من فتحه. إن الإنسان يميل بطبعه إلى تسمية العطاء نجاحاً، والحرمان فشلاً، والوفرة كرامة، والقلّة هواناً؛ لكن القرآن يرفض هذا التبسيط كله، ويعيد تعريف النعمة باعتبارها مسؤولية قبل أن تكون امتيازاً. فما يعطيك الله إياه لا يسألك عنه فقط: هل فرحت به؟ بل: ماذا صنعت به؟ هل زادك قريباً أم غروراً؟ هل وسع يدك في الخير أم وسع نفسك في الطغيان؟ هل صرت به ألين للخلق أم أشد إعجاباً بذاتك؟

وقد تكون فتنة النعمة أخفى من فتنة المصيبة؛ لأن المصيبة تعلن نفسها فتدفع الإنسان غالباً إلى البحث عن الله، أما النعمة فقد تدخل على القلب في ثوب الأمان، وتبدأ بهدوء في إعادة ترتيب أولوياته دون أن يشعر. يزداد رزقه فيزداد اشغاله، ويتسع ماله فيتسع تعلقه بال دنیا، ويرتفع اسمه فيرتفع صوت نفسه في داخله، حتى يتحول ما كان يفترض أن يكون سبب شكر إلى سبب غفلة. ولهذا لا يكفي أن تسأل الله العطاء؛ بل اسأله أن يحفظ قلبك بعد العطاء، لأن بعض الناس نجوا وهم محتاجون ثم خسروا حين استغنوا، وثبتوا وهم في الضيق ثم تبدلوا حين فتحت لهم الأبواب.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

إن قوله ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ يضعنا أمام سؤال مخيف في بساطته: ماذا تفعل النعمة بك؟ فقد يمتلك اثنان المال نفسه، فيجعله أحدهما جسراً إلى الله، ويجعله الآخر جداراً يحجبه عنه. وقد ينال اثنان المنصب نفسه، فيراه الأول تكليفاً، ويره الآخر اعترافاً بعظمته. وقد يحصل اثنان على المعرفة نفسها، فيزداد أحدهما خشوعاً لأنه رأى اتساع ما يحمله، ويزداد الآخر كبراً لأنه رأى مقدار ما يعلم. ليست النعمة هي التي تحدد النتيجة وحدها، بل القلب الذي يستقبلها؛ ولهذا كانت الفتنة اختباراً لما يظهره الشيء من باطنك.

ومن هنا نفهم أن القرآن لا يبني إنساناً يعبد الله ليحصل على الدنيا، وإنما إنساناً يعبد الله لأنه ربه؛ فإن أعطاه شكر، وإن منعه صبر، وإن وسع عليه لم يجعل السعة إلماً جديداً، وإن ضيق عليه لم يظن أن الطريق قد بطل. فالاستقامة التي تنهار بمجرد أن يتأخر العطاء ليست استقامة كاملة، والطاعة التي تتحول إلى صفة مع القدر تظل مهددة؛ لأن الله يريد قلباً يعرفه في كل الأحوال، لا قلباً يعرفه فقط حين يرى المكاسب.

ثم يأتي النصف الثاني من الآية ليواجه الطرف الآخر من الطريق: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَدًا﴾. والإعراض ليس مجرد غفلة عابرة تطرأ على الإنسان ثم ينتبه منها، بل ميل مقصود بالوجه عن الذكر، وانصراف عن النور بعد ظهوره. والقرآن لا يقول

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

هنا: من جهل فقط، وإنما ﴿مَنْ يُعْرِضُ﴾، فاللفظة تحمل معنى الرض والابتعاد. وكان المشكلة ليست أن الذكر غاب، بل أن صاحبه أعطاه ظهره.

وذكر الرب أوسع من أن يُحصر في حركة اللسان وحدها؛ يدخل فيه الوحي والقرآن وما يذكر بالله ويصل القلب به ويمنعه من الغفلة عنه. ومن اللطيف أن يقول: ﴿ذِكْرُ رَبِّهِ﴾ لا ذكر الله فحسب؛ ففي لفظ الربوبية تذكير بمن خلق وربّ ورزق ودبر، فكان الإعراض يصبح أشد قبحاً حين نتذكر أنك تعرض عن من لم يزل يحسن إليك. ليس المعرض يبتعد عن فكرة مجردة، بل يبتعد عن ربه؛ عن أوجده من عدم، وأجرى عليه نعمته، وفتح له باب الهدى، ثم دعاه إلى ما يصلحه.

وقوله: ﴿يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ يرسم العذاب كطريق شاق صاعد يزداد مشقةً على سالكه، وقد فسّر الصَّعَدَ بالعذاب الشاق الصعب. والتعبير مريب، لأن المعرض يظن أنه حين يبتعد عن ذكر الله يختار طريقاً أسهل، يتخفف فيه من التكليف والحدود والمراجعة، لكن القرآن يكشف أن الإعراض نفسه دخول في طريق العنت. وليس هذا مجرد عقوبة أخروية فقط في المعنى العام، بل ثمة أثر يشاهده الإنسان في روحه كذلك: كلما ابتعد عن مركز الهداية تعقدت علاقته بنفسه وبالعالم، لأن القلب الذي خلق لمعرفة الله لا يجد استقراره الحقيقي وهو يدور بعيداً عنه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كم يبدو طريق المعصية في أوله منحدرًا سهلاً، ثم يكتشف صاحبه أنه كان يصعد جبلاً من التعب! شهوة تتطلب كذبة، والكذبة تستدعي أخرى، والخطأ يحتاج إلى تبرير، والتبرير يحتاج إلى قسوة على الضمير، ثم يجد الإنسان نفسه يحمل شبكة كاملة من الأثقال كي يحافظ على ابتعاده. أما الطاعة فقد تبدو في بدايتها تكليفاً، لكنها تحرر الإنسان من كثير من التعقيد الداخلي؛ لأنه لا يحتاج أن يصنع لنفسه عشرات الوجوه. يوافق باطنه ظاهره، ويتجه قلبه إلى جهة واحدة، ويعرف من يرضي، فلا يتيه بين آلهة الأهواء المتزاحمة.

وهنا نلمس علاقة دقيقة بين الآيتين: الاستقامة على الطريق قد يصحبها عطاء يُمتحن به العبد، والإعراض عن الذكر يفضي إلى طريق صاعد من العذاب؛ فليست الراحة إذن في أن تحصل على أكثر، بل في أن تستقيم أكثر. ربما يكون المرء كثير المال قليل الطمأنينة، وربما يكون قليل المال واسع القلب. القرآن لا يقيس الحياة بعدد ما في اليد، وإنما بسلامة ما في القلب واتجاهه.

ثم تبلغ السورة في الآية الثامنة عشرة واحداً من أكثر مواضعها صفاءً وحسماً: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾. بعد الحديث عن الجن والسماء والغيب والاستعاذة والخوف والرشد والاستقامة والفتنة، يأتي المسجد ليظهر بوصفه المكان الذي يجب أن تتجسد فيه النتيجة كلها: الله وحده. فكأن الرحلة الطويلة في تصحيح التصور يجب في النهاية أن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

تنزل إلى موضع السجود، وأن يتحول التوحيد من فكرة في الذهن إلى هيئة في الجسد ودعاء في اللسان وقصد في القلب.

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾؛ إنها جملة قصيرة لكنها تعيد ملكية المكان إلى صاحبها الحقيقي. المسجد ليس لأحد من البشر مهما علا قدره، ولا لجماعة، ولا لرمز، ولا لاسم، وإنما لله. وقد ذكر المفسرون في المساجد أقوالاً، أشهرها بيوت العبادة، وقيل مواضع السجود من الجسد، والمعنى الجامع يرد العبادة كلها إلى الله. فإذا كان المكان له، والسجود له، والدعاء له، فما الذي يبقى للمخلوق أن ينازعه في القلب؟

ثم يأتي النهي جامعاً قاطعاً: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. كلمة ﴿أَحَدًا﴾ هنا تعود بنا إلى أول السورة: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾. وكأن السورة صنعت قوساً من التوحيد؛ بدأ على لسان الجن المؤمنين، ثم صار أمراً ربانياً مباشراً: لا أحد. في أول السورة كان قرار المستجيبين، وهنا أصبح قاعدة العبادة: من عرف الله لا يجعل بين قلبه وبينه شريكاً في الدعاء.

والدعاء من أصفى صور العبودية، لأنه يكشف في لحظة واحدة من يراه الإنسان ملجأه الأعلى؛ حين يضيق به الأمر ويتهاوى ما حوله، من الذي يخرج اسمه أولاً من قلبه؟ من

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

الذي يعتقد أنه يسمع حاجته ويقدر على كشفها؟ ولهذا كان توحيد الدعاء أشد التصاقاً بجوهر العقيدة. ليس الأمر مجرد منع لفظي من قول صيغة بعينها، بل تحرير لموضع الرجاء والخوف والافتقار في النفس حتى لا يتوزع بين الخالق والمخلوق.

إن الإنسان قد يحترم الصالحين، ويحب الأنبياء، ويوقر العلماء، ويشكر المحسنين، لكنه لا يرفع أحداً منهم إلى مقام الربوبية أو العبادة. الإسلام لا يهدم المحبة، بل يصحح مرتبتها؛ ولا يلغي الوسائل المشروعة، لكنه يمنع أن تتحول الوسيلة إلى معبود. ولهذا يخرج المؤمن من المسجد وقد تعلم درساً يتجاوز جدرانته: إن كان المسجد لله، فقلبك أولى أن يكون لله، وإن كان سجدك له، فدعاؤك له، وخوفك الأعلى منه، ورجاؤك الأعظم فيه.

وكم هو مؤثر أن تأتي هذه الآية في سورة الجن بالذات؛ فالذين كانت بعض الأمم تستعبد بهم أو تتعلق بقواهم الخفية، تأتي السورة نفسها لتعلن في ذروتها: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. فكأن القرآن قد أخذ الإنسان من باب الخوف من الجن، ثم سار به عبر حدودهم وعجزهم واختلافهم وإسلام بعضهم، حتى أوصله إلى المسجد وأوقفه ساجداً لله وحده. لقد بدأت المشكلة بتعظيم مخلوق خفي، وانتهى العلاج بالسجود للخالق الظاهر بآياته المتعالي عن أن تدركه الأبصار.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وهنا تتجلى وحدة السورة على نحو بديع؛ ليست آياتها مشاهد متناثرة عن عالم الجن، بل كل مشهد يدفع إلى التوحيد: الجن يسمعون فيؤمنون، ويعترفون أنهم لا يعلمون الغيب، ويعترفون أنهم لا يعجزون الله، ويعلمون أن منهم المسلم والقاسط، ثم يكشف الله أن الاستقامة اختبار، وأن الإعراض عذاب، ثم يضع الخلاصة في المسجد: لا تدعوا مع الله أحداً. إنها رحلة من الغيب إلى العبادة، ومن الفضول إلى السجود.

ومن أعمق ما تمنحه هذه الآيات للقلب أن التوحيد ليس فقط أن تعرف من تعبد، بل أن تعرف كيف ترى النعمة أيضاً. فقد يكون المال فتنة، والمكانة فتنة، والصحة فتنة، وحتى العلم فتنة، إن أخرجتك كلها من مقام الافتقار. وقد يكون المسجد نفسه فتنة إن دخل الإنسان إليه باحثاً عن الناس لا عن الله؛ عن صورته لا عن عبوديته، عن مكانته لا عن سجوده. لذلك كانت عبارة ﴿الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أكبر من حدود المكان؛ إنها إعلان أن كل عبادة تفقد معناها إذا دخل فيها شيء من طلب غيره.

وليس الإخلاص شعوراً غامضاً يقول الإنسان إنه يملكه، بل جهاد متكرر لتصفية القصد؛ فقد يبدأ العمل لله ثم يتسلل إليه نظر الناس، وقد يكون الدعاء لله ثم يتعلق القلب بسبب من الأسباب حتى ينسى مسببها، وقد يدخل الإنسان المسجد بقدمين خاشعتين وقلبه واقف

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

على أبواب المخلوقين. وهنا تأتي الآية لتعيد ترتيب الداخل: المسجد لله، والدعاء لله، والقلب لله.

وفي مقابل ذلك، كم من راحة يحملها توحيد الوجهة! إن القلب حين يتوزع يتعب، وكلما كثرت الجهات التي يريد إرضاءها ازداد تمزقًا. أما من جمع أمره على الله فقد عرف مركزه؛ لا يعني ذلك أنه لا يراعي الناس بحقوقهم، ولا أنه يهمل الأسباب، بل يعني أن المرجع الأعلى واحد. فإذا مدحه الناس لم يطر، وإذا ذموه لم يهدم، وإذا أعطوه شكر، وإذا منعه لم يعبد منهم، لأن القيمة الكبرى في داخله لا يصنعها الناس.

وهكذا يكتمل في هذه الآيات بناء عجيب: استقامة، ثم نعمة، ثم فتنة، ثم تحذير من الإعراض، ثم مسجد، ثم دعاء خالص. كأن الله يعلننا أن الطريق لا يكتمل بكثرة النعم، بل بسلامة الاتجاه، وأن الامتحان الحقيقي ليس ماذا أعطيت، بل ماذا فعل العطاء بقلبك، وأن النهاية التي ينبغي أن يصل إليها كل فهم وكل رزق وكل تجربة هي أن تقول بكيانك كله: لا أدعو مع الله أحداً.

وسأخذنا الفصل التالي إلى مشهد شديد المهابة؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يدعو ربه، والجن يزدهمون حول سماع الوحي، ثم يؤمر النبي أن يعلن للخلق جميعاً حدود قدرته

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ
وغيابة وظيفته: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا

رَشَدًا؛ وهناك ستبلغ السورة قمة أخرى من قمم تحرير القلب، إذ تجعل أعظم البشر صلى

الله عليه وسلم يعلن عبوديته الخالصة حتى لا يبقى في الوجود موضع لتعلق يزاحم التعلق

بالله.

الفصل السادس

حين يعلن الرسول حدود قدرته وكمال عبوديته

الآيات التاسعة عشرة إلى الثالثة والعشرين

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۖ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۖ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾

بعد أن انتهت الآيات السابقة إلى قاعدة التوحيد الكبرى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، تأتي هذه الآيات كأنها التطبيق العملي الأعلى لهذه القاعدة في حياة خير البشر وأكملهم عبوديةً لله؛ محمد صلى الله عليه وسلم. فالقرآن، وهو يربي الأمة على التوحيد، لا يكتفي بأن يقول لها: لا تتعلقوا بالجن، ولا تلتفتوا إلى القوى الغيبية، بل يرتفع بها إلى مقام أدق وأشد حساسية: لا تجعلوا حتى حكيم للرسول صلى الله عليه وسلم باباً يخرجه عن مقام العبودية الذي شرفه الله به. إن النبوة في الإسلام لا تنتقص حين يعلن صاحبها أنه عبد، بل تبلغ كمالها؛ لأن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

أعلى منزلة يصل إليها المخلوق أن يعرف نفسه عبداً لله، وأن يؤدي رسالته دون أن ينازع ربه شيئاً من خصائصه.

قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. وما أروع هذا الاسم في هذا الموضع: عبد الله. لم يقل: لما قام النبي، ولا لما قام الرسول، مع شرف النبوة والرسالة، وإنما اختار له وصف العبودية؛ لأن السياق كله سياق تصحيح لموازن التعظيم. إن الذي اجتمع لسماعه الجن، والذي نزل عليه القرآن، والذي أقامه الله مقام البلاغ للعالمين، هو قبل كل ذلك وبعد كل ذلك عبد لله. وكلما ارتفعت منزلة العبد عند الله ازداد تحقيقه لعبوديته، لا انفكاكه عنها.

وفي هذا التعبير جواب عميق عن سؤال الشرف الحقيقي: ما الذي يرفع الإنسان؟ ليس أن يصير خارج حد العبودية، بل أن يحققها أكمل تحقيق. ولهذا كان من أعظم أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم في أشرف المقامات وصف العبد؛ في الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾، وفي إنزال القرآن: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾، وهنا: ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾. كأن القرآن يريد أن ينزع من ذهن الإنسان ذلك الوهم الذي يربط العظمة بالخروج من مقام العبودية؛ الحقيقة أن العظمة كلها في أن تكون عبداً لله حقاً.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وقوله: ﴿يَدْعُوهُ﴾ يربط هذه الآية مباشرة بما قبلها: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾. فالرسول

نفسه يدعو الله وحده، ويقف متجرداً له، وتأتي حياته برهاناً على ما يدعو إليه. ليس التوحيد موعظة يلقيها على الناس ثم يقيم هو في مقام آخر؛ بل هو أول العابدين به، وأكملهم قياماً بمقتضاه. وكل دعوة لا يشهد لها حال الداعي تظل ناقصة، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان قوله في التوحيد مرآة لعبادته: يأمر الناس ألا يدعوا مع الله أحداً، ثم يقوم هو يدعو الله وحده.

ثم يقول سبحانه: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾، أي جماعات متراكبة مزدحمة، وقد حمل المفسرون الضمير على الجن حين ازدحموا لسماع القرآن، وقيل في المعنى أقوال أخرى بحسب السياق، لكن صورة التزاحم ثابتة في اللفظ؛ مشهد من الانجذاب الشديد إلى ما يتلى ويُعبد الله به. ولِبَدًا توحى بالتراكم والتكاثف، كأن الأجساد قد تقاربت حتى صار بعضها فوق بعض من شدة الإقبال.

ومن أجل ما في المشهد أنه يعكس الصورة التي بدأت بها السورة: ﴿اسْمَعْ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾؛ كانوا نفرًا يسمعون، ثم صار السماع نفسه مركز جذب، وكأن كلمة الله إذا وجدت قلباً صادقاً لم تتركه عند حد الانبهار، بل تدفعه إلى الاقتراب والإنصات. وهنا تبدو وظيفة الرسول في أنقى صورها: عبد قائم، يدعو ربه، ويتلو ما أوحى إليه، ومن حوله مخلوقات

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

تستمع. لا ادعاء للغيب، ولا استعراض لسلطان ذاتي، ولا استجلاب للناس إلى شخصه؛
المركز كله هو الله وكلامه.

ثم يؤمر أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. وإنما تفيد الحصر؛ لا وجهة
أخرى، ولا معبود آخر، ولا شريك في الدعاء. ثم تعود كلمة ﴿أَحَدًا﴾ للمرة الثالثة تقريباً في
هذا المحور التوحيدي من السورة؛ قال الجن أولاً: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، وقال الله:
﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، ثم قال الرسول بأمر ربه: ﴿وَلَا تُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. إنها دائرة
مكتملة من التوحيد: المستجيب يعلنه، والوحي يأمر به، والرسول يجسده.

وهذا التكرار ليس زيادة لفظية، بل تثبيت لمركز السورة كله؛ فهما تنوعت مشاهد الجن
والغيب والسماء والشهب والعبادة، يبقى الخيط الذي يجمعها: لا أحد مع الله. ولا تعني
العبارة محو مكانة الخلق أو إنكار فضلهم، وإنما ترتيب المقامات؛ الله يُعبد، والرسول يُتبع،
والصالحون يُحبون، والأسباب تُؤخذ، والخلق يُشكرون فيما أحسنوا، لكن القلب لا يخلط
بين مقام الرب ومقام العبد.

ثم تأتي الآية الحادية والعشرون شديدة الوضوح: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾.
وهذه من أعظم آيات تحرير الاعتقاد في مقام النبوة؛ فحمد صلى الله عليه وسلم، وهو

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

أحب الخلق إلى الله، وأعظمهم قدراً، مأموران يعلن أنه لا يملك من ذاته للناس ضراً ولا رشداً. ليس معنى ذلك أنه لا يكون سبباً في الهداية بالبلاغ والتعليم، فقد وصف الله القرآن والرسالة بالهداية، وإنما المعنى أنه لا يملك الهداية استقلالاً، ولا يملك تدبير مصائر الخلق من عند نفسه؛ السلطان الأعلى لله وحده.

وفي هذا الإعلان كمال لنبوته لا نقص؛ لأن النبي الصادق هو الذي لا يسرق لنفسه شيئاً من صفات المرسل. الدجال يضخم ذاته، والكاهن يوهم الناس أنه يملك أسراراً، والطاغية يريد أن يشعر أتباعه بأن مصيرهم مربوط بشخصه، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقف ويقول: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾. أي صفاء أعظم من أن تكون لديك محبة الملايين وثقتهم ثم تُعيدهم جميعاً إلى الله ولا تحتفظ لنفسك من قلوبهم إلا بحق الرسالة والاتباع؟

وهذه الآية تربي المسلم على محبة النبي صلى الله عليه وسلم المحبة الصحيحة؛ محبة ترفعه إلى المنزلة التي رفعه الله إليها، ولا تتجاوز بها إلى ما نفاه عن نفسه. نوقره، ونصلي ونسلم عليه، ونطيعه فيما بلغ عن الله، ونحبه فوق محبة النفس والولد والناس أجمعين من جهة حق الإيمان، لكننا نعلم أنه عبد رسول، وأن النفع والضرر والهدى والملك المطلق لله وحده.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

وكل محبة لا تقف عند حدود الشرع قد تنقلب من تعظيم مشروع إلى تجاوز يفسد أصل التعظيم نفسه.

ثم يزداد المعنى رسوخاً في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾. وهنا ينتقل الخطاب من نفي الملك للآخرين إلى بيان افتقار النبي نفسه إلى الله؛ ليس فقط لا أملك لكم استقلالاً، بل أنا نفسي لا أجد من يحميني من الله لو خالفت أمره. وهذه قبة العبودية؛ أن يكون حامل الرسالة أعلم الناس بعظمة المرسل، وأشدهم خوفاً من التقصير في حقه، وأبعدهم عن أن يرى منصبه حصانة من الحساب.

ما أوقع هذه الآية في القلب: ﴿أَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾. إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلن هذا، فمن ذا الذي يغتر بنسب أو علم أو منزلة أو عمل؟ ومن ذا الذي يظن أن موقعه الديني أو الاجتماعي يمنحه مخرجاً من سلطان الله؟ إن القرب من الله ليس رخصة في مخالفة أمره، بل هو أعظم باعث على الخشية منه. والنبوة نفسها ليست باب امتياز خارج العبودية، بل تكليف أشد وقيام أعظم.

ثم يقول: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾، أي ملجأً ومعدلاً ومكاناً ينحاز إليه الإنسان ويحتتمي به. والصورة هنا عجيبة: لو أراد المخلوق أن يهرب من الله، إلى أين يهرب؟ كل

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

الجهات ملكه، وكل الأماكن تحت سلطانه، وكل المخلوقات مفتقرة إليه، فلا يوجد في الوجود كله مكان يخرج عن إحاطته حتى يتحول إلى مخبأ منه. وهذا يعيد معنى سابقاً قاله الجن: ﴿لَنْ نَعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا﴾؛ فالرسول والجن والإنس جميعاً تحت الحقيقة نفسها: لا مهرب من الله.

ولكن هذه الحقيقة، رغم هيبتها، تحمل للمؤمن راحة عظيمة؛ إذا لم يكن من الله ملتحداً، فإن الملتحداً إليه. لا تهرب من الله، بل اهرب إليه. لا تبحث عن مكان خارج سلطانه، بل ادخل في رحمته. وهذا من أعجب أسرار العبودية: الذي تخشاه هو نفسه الذي ترجوه، والذي تحذر حسابه هو نفسه الذي تسأله المغفرة، فلا تناقض في القلب؛ لأنه يعرف الله بجلاله ورحمته معاً.

إن الإنسان حين يخطئ مع مخلوق قد يهرب منه إلى آخر، لكن حين يخطئ مع الله لا يكون له نجاة إلا بأن يرجع إلى الله نفسه. وهذا معنى شديد التأثير في التوبة: لا تحتاج أن تبحث عن وسيط يفتح لك باباً أغلقه الله، بل الباب الذي خفت منه هو نفسه باب الرحمة إذا صدقت في العودة. ومن هنا يكون التوحيد أعمق أنواع الأمان؛ لأنك لا تعيش بين قوى متصارعة، بل تحت رب واحد، إن أذن لك بالخير لم يمنعه أحد، وإن دعوته سمعك، وإن تبت إليه قبلك إن صدقت.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

ثم تأتي الآية الثالثة والعشرون لتبين وظيفة الرسول: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾. أي ليس له من المخرج والقيام بالواجب إلا أن يبلغ ما أرسله الله به، أو أن وظيفته التي كلف بها هي البلاغ. وهذه الكلمة، البلاغ، تختصر معنى الرسالة: حمل الأمانة كما جاءت، وإيصالها إلى من أرسل إليهم الناس من غير تحريف ولا كتمان.

وهنا يظهر الفرق بين النبي وصانع الأتباع؛ النبي لا يملك أن يغير الرسالة ليضمن قبول الناس، لأن الرسالة ليست ملكه. لا يخفف منها ما ثقل على أهوائهم، ولا يزيد فيها ما يحبون، ولا يؤجل حقائقها كي يحبي مكانته. ما عنده أمانة، ومهمته أن تبلغ. ولذلك كان أعظم دليل على صدق النبي أنه بلغ حتى الآيات التي تعاتبه أو تقرر بشريته وحدود قدرته؛ لو كان القرآن كلامه لكان من طبيعة البشر أن يصنع لنفسه صورة أكثر تضخماً، لكن القرآن يأمره أن يقول للناس: لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، ولن يحيرني من الله أحد.

ثم يأتي التحذير: ﴿وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾. وليس المقصود أن كل معصية مفردة تقتضي الخلود الأبدي، فهذا الموضع عند أهل التفسير محمول على معصية الكفر والإعراض عن الرسالة بحسب السياق، إذ لا تفهم آية الوعيد بمعزل عن مجموع نصوص القرآن والسنة التي تفرق بين الكفر والمعاصي دون الكفر. وهذا التنبيه مهم

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

حتى يبقى التدبر منضبطاً بمقصود الوحي، فلا يُحوّل الوعيد العام إلى حكم تفصيلي يتجاوز ما دلت عليه النصوص.

إن السياق يتحدث عن رد الرسالة والعصيان الذي يقطع صاحبه عن أصل النجاة؛ بعد أن جاء البلاغ واضحاً، وبعد أن أعلن الرسول أنه ليس إلا مبلغاً عن الله، يصبح رفض الرسالة رفضاً لأمر الله الذي حمله الرسول. وهنا نفهم لماذا جمع بينهما: ﴿يَعْصِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾؛ طاعة الرسول ليست عبادة له، بل لأنها طاعة للذي أرسله. ومن يفصل بين محبة الله واتباع رسوله يهدم الطريق الذي اختاره الله للوصول إلى هدايته.

وفي قوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ تصل الآيات إلى غاية الجدية؛ فالرسالة ليست خطاباً ثقافياً يمكن للإنسان أن يضعه على رف الأفكار، بل أمر يتعلق بالمصير الأبدي. والقرآن حين يذكر النار لا يفعل ذلك ليغرق الإنسان في الرعب المجرد، بل ليكسر الوهم الأخطر: أن الحياة بلا حساب، وأن القرارات الكبرى يمكن أن تمر دون عاقبة. من رحمة الله أن يخبرك بمآل الطريق قبل أن تسلكه، وأن يجعل النهاية معلومة قبل أن تصبح واقعاً لا يمكن تغييره.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

وفي هذا الفصل كله يظهر النبي صلى الله عليه وسلم في أجمل مقاماته: عبد يدعو ربه، ورسول يبلغ رسالاته، لا يشرك به أحداً، لا يدعي ملك الضر والرشد، لا يجد من دون الله ملتحداً، ويقف تحت التكليف كما يقف من دعاء إليه. وما أعظم هذا البناء في مقاومة كل غلو؛ فإن أردت أن تعظم الرسول حقاً، فعظمه كما عظمه الله: رسول كريم، ونبي مصطفى، وسيد ولد آدم، وعبد لا يملك شيئاً من خصائص الربوبية.

ولعل من أعمق معاني هذه الآيات أن الإنسان لا يحتاج في التوحيد إلى أن ينقص من قدر الأنبياء حتى يحفظ حق الله؛ فالتوحيد لا يقوم على التقليل من الخلق، بل على إعطاء كل ذي حق حقه. الله له العبادة والملك المطلق وعلم الغيب والتصرف الذي لا يشاركه فيه أحد، والرسول له الطاعة والمحبة والتوقير والاتباع فيما جاء به. وحين تختلط المراتب يفسد الدين من جهتين: إما جفاء يضيع حق الرسول، أو غلو يرفع العبد فوق منزلته. والقرآن يسد الطريقين معاً.

وهذه السورة، التي بدأت بجن يستمعون، تجعل الآن النبي نفسه يعلن أنه عبد مستمع لأمر ربه ومبلغ عنه؛ فكل الموجودات في المشهد تنتظم في سلك واحد من العبودية. الجن تحت سلطان الله، والرسول تحت سلطان الله، والإنس مخاطبون بأمر الله، والرسالة منه، والنجاة

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

عنده، والعذاب بيده. وما أجمل الإسلام حين يُرى بهذه الوحدة: ليس فيه كائن يحتل

منطقة وسطى بين الخالق والمخلوق، بل خط فاصل صافٍ؛ رب يُعبد، وخلق يعبدونه.

ومن هنا نفهم أن أكبر تحرير يقدمه التوحيد للإنسان هو أنه ينقذه من الحاجة إلى تقديس

المخلوقين. تستطيع أن تحبهم دون أن تعبدهم، وأن توقرهم دون أن تفوض لهم مصيرك،

وأن تستفيد منهم دون أن تعطيتهم مفاتيح قلبك. وحين تعرف أن حتى النبي صلى الله عليه

وسلم يقول: ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾، ينكسر فيك كل وهم بأن مخلوقاً يمكن أن يقف

بينك وبين الله موقف المالك المستقل.

وهكذا يرتفع معنى البلاغ ليصبح من أعظم الكلمات في السورة؛ الرسول بلغ، والجن سمعوا،

فهم من آمن، والإنسان أمام البلاغ مسؤول. ليست وظيفة الرسالة أن تلغي إرادتك، بل

أن تضع النور أمامك حتى يصبح اختيارك مكشوفاً. وقد يكون أخطر ما يفعله الإنسان بعد

البلاغ أن يتعامل مع الوحي كأنه لم يبلغه؛ يقرأ الآيات ثم يعود إلى الحياة كما لو أنها لم تطلب

منه شيئاً.

وفي ختام هذه الآيات يقف القلب بين حقيقتين: عجز الرسول عن الملك المستقل، وعظمة

مهمته في البلاغ. ومن جمعهما عرف النبوة حقاً؛ ليست ألوهية مخففة، وليست مجرد عبقرية

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

بشرية، بل اصطفاء إلهي لعبد يتلقى من ربه، ثم يبلغ ما تلقى بأمانة. وهذه هي عظمة محمد صلى الله عليه وسلم: لم يدع الناس إلى نفسه، بل أخذ بأيديهم كلها إلى الله.

وسأتي الفصل التالي ليضعنا أمام لحظة سقوط أوهام القوة كلها، حين يرى المعاندون ما كانوا يعدون، فيدركون من هو أضعف ناصراً وأقل عدداً، ثم يتجه الخطاب إلى السؤال الذي ظل يطارد الإنسان منذ القديم: متى يقع الوعد؟ فيأتي الجواب بتواضع النبوة نفسه: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾؛ لنقترب بعد ذلك من خاتمة السورة الكبرى، حيث يغلق الله أبواب الغيب كلها إلا الباب الذي يفتحه هو لمن ارتضى من رسول.

الفصل السابع

حين تسقط أوهام القوة أمام الوعد الآتي

الآياتان الرابعة والعشرون والخامسة والعشرون

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ قُلْ إِنَّ أَدْرِي
أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٤﴾

تجيء هذه الآيات بعد أن أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم حدود قدرته، وبعد أن تحدت مهمته في البلاغ، وبعد أن جاء الوعيد لمن يعرض عن أمر الله ورسوله، فتنقل السورة من زمن الإنذار إلى لحظة انكشاف الحقيقة؛ فهناك أناس يستطيعون ما دام الوعد غائباً عن أبصارهم أن يجادلوا فيه، وأن يستندوا إلى ما في أيديهم من عدد وقوة وناصر، وأن يظنوا أن كثرة الأعوان يمكن أن تؤجل الحقيقة أو تغيرها، لكن القرآن ينقلهم فجأة إلى المشهد الذي ينتهي فيه الجدل كله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾. والرؤية هنا هي اللحظة التي تتحول فيها الحقائق المؤجلة إلى واقع حاضر، ويصبح ما كان مادةً للإنكار شيئاً لا يستطيع المنكر أن يدفعه عن عينيه.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

إن بين سماع الوعد ورؤيته مسافةً هي مسافة الامتحان؛ في هذه المسافة يستطيع الإنسان أن يؤمن أو يكذب، وأن يتوب أو يصصر، وأن يتهياً أو يغفل، أما إذا صار الوعد مشهوداً فقد انتهت المسافة التي كان فيها الاختيار ينفع صاحبه. ولهذا يكرر القرآن أخبار الآخرة والعذاب والجزاء قبل وقوعها؛ ليس لأن الإنسان يحتاج إلى التخويف لمجرد التخويف، بل لأن الرحمة تقتضي أن يعرف النهاية قبل أن تتغلق أبواب المراجعة. إن الطبيب لا يقسو على المريض حين يخبره أن استمرار الداء على هذا الطريق سيهلكه، بل تكون القسوة أن يخفي عنه النهاية حتى يفاجأ بها حين لا يعود العلاج ممكناً.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ يترك الوعد في سياق من الهيبة والعموم، وقد يدخل فيه ما توعد به المكذبون من العذاب في الدنيا أو الآخرة بحسب ما دل عليه السياق وأقوال المفسرين، غير أن المعنى الجامع واضح: سيأتي وقت يصبح فيه ما كانوا يسمعون خبراً مشهداً. وهذه النقلة من الخبر إلى المشاهدة من أعمق قوانين الحياة الأخروية؛ كثير من الحقائق الآن تحتاج إلى إيمان بالغيب، لكن الغيب نفسه سيصير يوماً شهادة، وعندها لن تكون القضية: هل صدقت؟ بل: ماذا قدمت حين كان التصديق اختياراً؟

ثم يقول سبحانه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾. وهذه العبارة تقلب معيار القوة كله. كم من إنسان كان يظن نفسه قوياً لأنه محاط بالناس، أو لأن له جماعة، أو مالاً،

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

أو سلطاناً، أو ظهراً يستند إليه، ثم يأتي وقت تذوب فيه هذه الطبقات كلها ويظهر الإنسان وحده أمام الله. إن العدد الذي كان يمنح القلب شعوراً زائفاً بالأمان لا يصمد إذا جاء أمر الله، والناصر الذي كان يبدو قوياً لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قبل أن يدفع عن غيره.

وما أشد مناسبة هذه الآية لسورة الجن؛ فالإنسان الذي قد يتوهم أن القوى الخفية أو الأعوان الكثر يمكن أن تمنحه حصانة، يرى في هذه السورة مرة بعد مرة أن كل قوة مخلوقة محدودة. الجن لا يعجزون الله هرباً، والرسول نفسه لا يجد من دون الله ملتحداً، والمكذبون سيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً. وكأن السورة تهدم طبقة بعد طبقة كل فكرة تقول إن هناك جهة يمكن أن تحميك من الله. لا الجن، ولا الناس، ولا العدد، ولا المكانة، ولا النسب، ولا القدرة؛ إذا جاء حكم الله ظهرت الأشياء كلها في حجمها الحقيقي.

وفي قوله: ﴿أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ معنى يتجاوز ضعف الأفراد إلى سقوط فكرة الاتكال على القوة الخارجية نفسها؛ فقد يكون للمرء ناصر، لكن الناصر لا ينفعه في اللحظة التي لا يملك فيها شيئاً. وقد تكون حول الإنسان كثرة، لكن الكثرة إذا لم تكن تحت أمر الله لا تصنع أمناً حقيقياً. ومن هنا يربي القرآن المؤمن على ألا يبني يقينه على عدد المؤيدين؛ فالخلق ليس حقاً

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

لأن أكثر الناس معه، ولا الباطل يضعف لمجرد أن قائله قليل، وإنما القوة الحقيقية في موافقة أمر الله والاستناد إليه.

كم من صاحب حق وقف وحده فكان أقوى من أمة اجتمعت على باطل، وكم من باطل ظن أصحابه أن ضجيجهم دليل بقائهم ثم انكشف أنهم كانوا يستندون إلى هواء. لا يعني هذا أن المؤمن يهمل العدد والقوة والأسباب، فالشرع يأمر بإعداد ما يستطيع من القوة، لكنه يمنع القلب أن يعبد السبب بعد أن يأخذ به. الفارق كبير بين أن تستعمل القوة وأن تعتقد فيها الاستقلال؛ الأولى مسؤولية، والثانية وهم.

وإذا تأملنا الآية وجدنا أن العقوبة نفسها ليست المعنى الوحيد؛ هناك أيضاً انكشاف معرفي متأخر: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾. كانوا لا يعلمون، أو يعتمدون ألا يعلموا، ثم سيعلمون. وما أقسى المعرفة حين تأتي بعد أن ينتهي زمن الانتفاع بها! بعض الحقائق لو عرفها الإنسان اليوم نفعته، ولو عرفها غداً لم تزد إلا حسرة. معرفة أن الدنيا فانية نافعة قبل أن تفنى، ومعرفة أن الله يحاسب نافعة قبل الحساب، ومعرفة أن العدد لا يغني نافعة قبل انهياره، أما إذا انكشفت هذه المعاني بعد فوات العمل تحولت المعرفة من هداية إلى شهادة على صاحبها.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

وهنا يتسلل إلى القلب سؤال كبير: إذا كان ما يوعدون آتياً لا محالة، فمتى؟ وهذه من أقدم أسئلة الإنسان أمام الغيب؛ فالنفوس تتعلق بالتوقيت، وربما تحاول أن تجعل جهلها بالموعد ذريعة لإنكار أصل الموعد. وكما قال المكذوبون في مواضع القرآن: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ وكأن تأخر الحدث في حسابهم ينفي وقوعه. فجاء الجواب هنا على لسان النبي صلى الله عليه وسلم في غاية الصدق والتجرد: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أُقَرِّبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾.

هذه الآية واحدة من أجمل مواضع تواضع النبوة أمام الغيب؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يوحى إليه، مأمور أن يقول بوضوح إنه لا يعلم توقيت ما لم يُطلعه الله على توقيته. لم يخجل الوحي من أن يضع حدوداً صريحة لما يعلمه النبي؛ لأن النبوة لا تقوم على ادعاء الإحاطة، بل على الأمانة في نقل ما أوحاه الله. وهذه وحدها كافية لهدم صورة الكاهن الذي يوهم الناس أنه يمتلك مفاتيح الغيب كلها؛ النبي الصادق لا يتكلف علم ما لم يعلمه الله، ولا يحول الفراغ المعرفي إلى تخمين ديني.

وقوله: ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي: ما أدري، يضع حدًا شديد الصفاء بين علم الرسالة وعلم الغيب المطلق. الرسول يعلم ما علمه الله، ويبلغ ما أوحى إليه، أما ما لم يؤذن له في علمه فلا يتجاوزه. ومن هنا نتعلم أدباً عظيماً في كل علم ديني: أن قيمة العالم ليست في قدرته على الإجابة عن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كل سؤال، بل في صدقه عند حدود علمه. وقد تكون كلمة لا أدري أحياناً أقرب إلى التقوى من صفحات من الكلام، لأن الصمت عند حد النص أمانة، والتكلف فيما وراءه تجاوز.

ثم يضع القرآن الاحتمالين كما هما: ﴿أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾. قد يكون قريباً، وقد يجعل الله له زمناً ممتداً؛ لكن المسافة الزمنية لا تغير حقيقة الوعد. وهذا درس بالغ الأهمية: تأخر الشيء لا يعني سقوطه. الإنسان ابن اللحظة، فإذا لم ير النتيجة سريعاً ظن أنها لن تأتي، بينما القرآن يحرره من عبودية الساعة؛ لله توقيته، وللوعد أجله، وليس على الحق أن يخضع لاستعجال البشر كي يكون حقاً.

والتعبير بـ ﴿رَبِّي﴾ هنا شديد العذوبة؛ فالذي يحدد الأمد هو الرب، لا الزمن الأعمى ولا المصادفة. الموعد ليس متروكاً لفوضى الأحداث، بل داخل تدبير الله. وهذا يجعل الانتظار نفسه جزءاً من العبودية؛ تؤمن بالوعد ولو جهلت وقته، وتستعد للنهاية ولو لم تعرف متى تأتي، وتترك لله تدبير الأزمنة كما تركت له تدبير النتائج.

وهنا يظهر فارق دقيق بين عقل المؤمن وعقل المتعجل؛ المتعجل يريد أن يملك الموعد كي يطمئن، أما المؤمن فيكفيه أن يملك الوعد الصادق. إذا علم أن الله قال، لم يعد جهله

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

بالتوقيت نقضاً ليقينه. وهذا المعنى واسع في حياة الإيمان كلها؛ لا تعرف متى يأتي الفرج، ولا متى يظهر أثر الدعاء، ولا متى تنقلب الأحوال، لكنك تعرف من يديرها. وحين يكون اليقين بالمدير أقوى من القلق على الموعد يصبح القلب أهدأ، لا لأنه يعرف تفاصيل المستقبل، بل لأنه يعرف ربه.

وليست هذه الآية ترخيصاً في إسقاط كل وعد أخروي على أحداثنا اليومية أو الادعاء بأن كل تأخر في أمنية شخصية هو من جنس هذا الوعد؛ فالتدبر المنضبط يميز بين المعنى القرآني الأصلي والتأمل العام. أصل الآية في الوعد الذي أنذر به المكذبون، لكن فيها تربية عامة صحيحة على ألا نجعل جهلنا بالتوقيت دليلاً على بطلان ما ثبت بدليل. وهذا هو الأدب مع النص: نأخذ منه الهداية دون أن نحملة ما لم يقله.

ثم انظر كيف تكتمل في هاتين الآيتين صورة النبي صلى الله عليه وسلم التي بدأت في الفصل السابق: هناك قال: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، وهنا يقول: ﴿إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ﴾. مرة يعلن حدود القدرة، ومرة يعلن حدود العلم. فما يبقى بعد ذلك من غلو؟ لا ملك مستقل، ولا علم مطلق، وإنما عبد رسول اصطفاه الله بالوحي، يعطيه من العلم ما يشاء ويكلفه بما يشاء. وكلها اتضحت هذه الحدود ازداد مقام النبوة نقاء، لأن العظمة الحقيقية لا تحتاج إلى أوصاف ليست لها.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

ولعل من أجمل ما في هذا المقطع أن عدم معرفة الموعد لا يؤخر التكليف. لم يقل النبي: ما دمت لا أعرف متى يأتي الوعد فلن أخطر الناس منه؛ بل البلاغ قائم، والإنذار قائم، والاستعداد واجب. وهذا شأن الإنسان مع الموت خاصة؛ لا يعرف أحد متى يأتيه أجله، لكن جهل الموعد ليس سبباً لتأجيل التوبة، بل ينبغي أن يكون سبباً لتعجيلها. وما أكثر ما يطلب الإنسان تاريخاً حتى يبدأ الاستعداد، بينما الغيب حجب عنه تحديداً لكي يبقى مستعداً في كل وقت.

إن الذين يقولون في قلوبهم: ما زال الوقت طويلاً، يننون قراراً خطيراً على معلومة لا يملكونها. من أخبرك أن الوقت طويل؟ ومن كتب لك أن نهاية الطريق بعيدة؟ قد يجعل الله للأمر أمداً، وقد يكون أقرب مما تظن. الحكمة إذن ليست في محاولة اقتحام الغيب، بل في إصلاح الحاضر حتى لا تخاف مجيء المستقبل في أي لحظة.

وفي عبارة ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ معنى آخر مهم: لله أن يؤخر، والتأخير ليس عجزاً ولا غفلة. كم يقع الإنسان في خطأ حين يفسر إهمال الظالم بأنه نسيان، أو تأخر الحساب بأنه غياب للعدل. القرآن يعلمنا أن الأمد نفسه مجعول؛ أي داخل الحكمة والتقدير. قد يطول الطريق، لكن طول الطريق لا يعني أن النهاية أُلغيت. وقد يمهل الله، لكن الإهمال شيء والإهمال شيء آخر، والله سبحانه لا يضل عنه شيء.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

وهكذا تقف هذه الآيات أمام وهمين كبيرين: وهم القوة ووهم التحكم بالزمن. الأول يقول: لدينا ناصر وعدد، والثاني يقول: إن كان الوعد حقاً فليأت الآن. والقرآن يجيب الاثنين؛ القوة ستتكشف حقيقتها حين يأتي ما يوعدون، والتوقيت ليس بأيديهم ولا بيد الرسول، وإنما عند الرب الذي يجعل لكل شيء أجله.

ومن هنا يصبح الإيمان تحرراً مزدوجاً: تحرراً من عبادة القوة، وتحرراً من استعجال الزمن. لا يغرك من حولك، ولا يخيفك من خذلك، ولا تجعل تأخر النتائج يسرق يقينك. انظر إلى الأمر من أعلى: هناك رب يدبر، ووعد سيأتي، وأجل لا يعلمه إلا من علمه الله، وعبد مكلف أن يكون على الحق سواء أكان الموعد قريباً أم بعيداً.

وفي آخر هذا الفصل تتهياً السورة لأعظم ختام فيها؛ لقد قالت إن الرسول لا يدري توقيت الوعد، وستجيب الآن عن الأصل الذي يفسر ذلك كله: من الذي يعلم الغيب؟ ومن الذي يطالع عليه؟ وكيف يحفظ الوحي حين يبلغه إلى رسله؟ فتأتي الآيات الأخيرة كاللحاف فوق بناء السورة كلها: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ...﴾؛ وعندها ستغلق السورة أبواب الخرافة كلها، وتعيد مفاتيح الغيب إلى صاحبها

وحده.

الفصل الثامن

حين تعود مفاتيح الغيب كلها إلى الله

الآيات السادسة والعشرون إلى الثامنة والعشرين

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۖ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۖ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾

تصل السورة هنا إلى موضعها الأخير، ولكنها لا تنتهي بانطفاء المشهد، بل تبلغ ذروة المعنى الذي كانت تسير إليه منذ أول آية؛ فنذ أن سمعنا عن الجن، وعن محاولتهم السمع، وعن السماء التي ملئت حرساً وشهباً، وعن اعترافهم بأنهم لا يدرون ما أريد بأهل الأرض، وعن الرسول الذي أعلن أنه لا يملك للناس ضراً ولا رشداً ولا يعلم متى يأتيهم ما يوعدون، كانت السورة في حقيقتها تنتزع مفاتيح الغيب يداً بعد يد من كل مخلوق حتى تضعها في النهاية حيث كانت منذ الأزل وحيث لا تكون إلا هناك: عند الله وحده. ولهذا جاءت الخاتمة باسم جليل لا يحتاج بعده إلى شرح كثير: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾؛ ليس عالماً بغيب من الغيوب

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

فحسب، بل العالم بالغيب كله، بما غاب عن الأبصار والعقول والحواس، وبما وقع وما سيقع، وبما أخفاه الصدور، وبما طوته الأزمنة، وبما لم يأذن لمخلوق أن يعرفه.

وما أروع أن تأتي ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ﴾ بعد قول النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوْعَدُونَ أَمْ لِيْ يُجْعَلُ لَهُ رِزْقٌ أَمَدًا﴾؛ فالسؤال الذي تركته الآية السابقة مفتوحاً أجابت عنه هذه الآية من جهة الأصل لا من جهة التاريخ: أنت لا تدري لأن الغيب ليس ملكك، والذي يعلم هو الله. وهكذا يصحح القرآن مفهوم النبوة بأدق عبارة؛ النبي لا يعلم الغيب بذاته، وإنما يعلم منه ما يعلمه الله إياه، فلا تُجعل الرسالة باباً لإسناد صفة من صفات الرب إلى الرسول، ولا يُنقص ذلك شيئاً من مقامه، بل هو تمام صدقه وعبوديته.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾؛ والعبارة شديدة الحسم، لأن الغيب أضيف إليه: ﴿غَيْبِهِ﴾، وكأن الإضافة نفسها إعلان ملكية؛ هذا غيب الله، لا ساحة مباحة لكل مدع، ولا خزانة تستطيع الحيلة أن تكسر قفلها، ولا عالماً يمكن للكهان والعرافين وأصحاب الأساطير أن يتجولوا فيه كما يشاؤون. وما شاء الله أن يبقى غيباً بقي غيباً، ولو اجتمعت العقول والجن والإنس على طلبه، وما شاء أن يظهر منه أظهره بالقدر الذي اقتضته حكمته. إن المعرفة هنا

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

ليست انتزاعاً من الله، وإنما عطاء منه، وهذه المسافة هي التي تفصل الوحي عن كل ادعاء غيبي آخر.

ولعل هذه الآية هي القفل الأكبر الذي يغلق أبواب الدجل التي ظل الإنسان يدخل منها عبر التاريخ؛ فمن ادعى علم الغيب استقلالاً فقد ادعى لنفسه ما اختص الله به، ومن صدق مدعياً في إحاطة مطلقة بالمستقبل فقد رفع مخلوقاً فوق حده، ومن ذهب يبحث عند كاهن أو عراف عما استأثر الله بعلمه فقد ترك الباب الذي أذن الله أن يسأله منه، واتجه إلى باب لم يأذن بفتحه. وليس توحيد الغيب مسألة نظرية بعيدة عن الحياة، بل هو حماية للقلب من أن يتحول إلى فريسة لكل من يتاجر بخوافه من المستقبل.

إن الإنسان يخاف المجهول، ولذلك كان أكثر الناس قابلية للخداع حين تتعلق المسألة بما سيحدث غداً؛ يمرض فيريد أن يعرف مصيره، ويتأخر عليه محبوب فيبحث عمن يخبره بما خفي، ويضطرب رزقه فيتعلق بإشارة أو منام أو قارئ طالع أو مدع يعرف الأسرار. وهنا يأتي القرآن بمنتهى الصفاء: الغيب لله. وليس هذا حرماناً لك من الطمأنينة، بل تحرير لك من عبودية المستقبل؛ لأنك لا تحتاج أن تعرف الغيب حتى تعيش آمناً، بل تحتاج أن تعرف رب الغيب. فإذا علمت أنه حكيم رحيم عليم، لم تعد حاجتك إلى كشف كل ما سيقع شرطاً لسلام قلبك.

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

فالإيمان لا يعطيك جدولاً تفصيلياً لما سيحدث، لكنه يعطيك ما هو أثمن: معرفة بمن لا يخرج ما سيحدث عن علمه وتقديره. وقد يظل غدك مجهولاً لك، لكنه ليس مجهولاً عند الله؛ وهذه وحدها راحة لو استقر معناها في القلب. أنت لا تمشي نحو فراغ، بل نحو قدر يعلمه ربك، ولا تستقبل يوماً خرج من يده، ولا يفاجئك ما يفاجئك. وبين جهلك وعلمه مساحة التوكل كلها.

ثم يأتي الاستثناء: ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾. لم يقل: إلا من شاء من الناس بإطلاق، وإنما ﴿مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾؛ اصطفاء إلهي مقصود، لا مهارة مكتسبة، ولا قوة باطنية يصل إليها الإنسان بالرياضة أو الأسرار، ولا نسباً يرثه، وإنما اختيار من الله لرسول يطلعه على ما شاء من غيبه مما تتطلبه الرسالة. ومن هنا يتضح الفارق الجوهرى بين الرسول والكاهن: الكاهن يدعي الوصول إلى ما حُجب عنه، أما الرسول فلا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه بوحيه؛ الكاهن يجعل نفسه مركز المعرفة، والرسول يقول: أُوحي إليّ.

وحتى الرسول الذي ارتضاه الله لا يُعطى الغيب كله؛ الاستثناء لا يعني انتقال صفة علم الغيب المطلق إلى الرسول، حاشا، وإنما اطلاعه على قدر مخصوص من الغيب بوحى الله. ولهذا قال النبي نفسه قبل آية واحدة إنه لا يدري أقرب ما يوعدون أم يجعل له ربه أمداً. فلو كان الاستثناء يعني إحاطة الرسول بالغيب لما صح هذا الإعلان السابق. لكن القرآن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

يفسر بعضه بعضاً: الله وحده عالم الغيب على الإطلاق، والرسول يعلم منه ما أطلعه الله عليه، وحيث لم يطلعه يقول بأمانة النبوة: لا أدري.

وهذه قاعدة تحفظ العقل الإسلامي من طرفين متناقضين؛ من جفاء ينكر ما أعلم الله به رسله من الغيب، ومن غلو ينسب إليهم الإحاطة بما لم يعطهم الله إياه. الحق في الوسط الذي رسمه النص: وحي صادق يتضمن أخباراً غيبية أطلع الله عليها رسله، ورب متفرد بعلم الغيب الذي لا يحيط به أحد من خلقه.

ثم تأتي صورة الحراسة مرة أخرى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾. والرصد هم الحفظة والحراس الذين يجعلهم الله حول رسوله وما يوحى إليه، فيكون الوحي محفوظاً بأمر الله من أن تتطرق إليه الشياطين بما يفسده أو يلتبس به على نحو يقدر في البلاغ. وهنا تعود السورة إلى الصورة التي رأيناها في أولها: ﴿مُلِئْتُ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾، ثم ﴿يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا﴾، وها هي الكلمة نفسها تعود عند الختام: ﴿رَصَدًا﴾. لم تكن تلك الحراسة مشهداً عرضياً، بل كانت جزءاً من القضية الكبرى: حفظ طريق الوحي.

وكان السورة بنيت بين رصدتين: رصد يمنع المتطفل على الغيب، ورصد يحرس الرسول الذي أذن له أن يتلقى شيئاً منه. الأول يقول للمخلوق: لا تدخل من غير إذن، والثاني يقول

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجَزِ الْخَلْقِ

الوحي: إذا أذن الله لك أن تنزل، فإن طريقك محفوظ. وهذه هندسة إيمانية مهيبة للمعرفة؛ لا فوزى في السماء، ولا تسرباً عشوائياً للغيب، ولا منافسة بين قوى مجهولة على الخبر، بل رب واحد يملك المعلومة ويأذن لمن يشاء منها بما يشاء ويحرس ما أذن به حتى يؤدي وظيفته.

ومن هنا تزداد مهابة القرآن في القلب؛ فالكتاب الذي بين أيدينا لم يصل إلينا باعتباره حصيلة تجربة بشرية غامضة، وإنما بوصفه رسالة محفوظة المصدر والطريق والبلاغ. وتلك المهابة ليست مجرد شعور جمالي، بل مسؤولية؛ إذا كان الله قد حفظ هذا الوحي حتى بلغك، فكيف تكون علاقتك به؟ وأي معنى لأن يصل إليك النور محفوظاً ثم تتركه مغلقاً في الرف، أو تقرؤه دون أن تسمح له أن يغير وجهتك؟ لقد حفظ طريق الرسالة من السماء إلى الرسول، ويبقى السؤال: ماذا صنعت أنت بها بعدما وصلت؟

ثم يقول سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ﴾. وليس في الآية بحال معنى أن الله كان يجهل ثم علم؛ تعالى الله عن ذلك، فعلمه سبحانه كامل أزلي محيط لا يسبقه جهل، وإنما ذكر أهل التفسير في الآية وجوهاً ترجع إلى ظهور تحقق البلاغ ووقوعه على ما علمه الله، أو إلى أن يظهر معلومه سبحانه في عالم الواقع، وقيل غير ذلك من المعاني المتسقة مع

سُورَةُ الْحِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كمال علمه. والمقصود الذي لا ينبغي أن يغيب عن القلب أن الرسائل لم تترك للفوضى، بل حفظها الله حتى أدى رسله ما كلفوا به.

وما أجمل التعبير: ﴿رِسَالَاتٍ رَبِّهِمْ﴾؛ إنها ليست رسالاتهم هم حتى يغيروا فيها على وفق رغباتهم، بل رسالات ربهم. الرسول حامل أمانة، وما أعظم شرفه في أنه أؤتمن على كلام لا يملكه. ولذلك كان البلاغ جوهر الرسالة، وكانت الأمانة جوهر البلاغ. لم يطلب من الرسول أن يجعل الناس مؤمنين بالقوة، فالهداية بيد الله، وإنما أن يبلغ الحق كاملاً واضحاً، ثم تكون لكل نفس مسؤوليتها أمام ما سمعت.

وقد مرت بنا كلمة البلاغ قبل قليل: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾، وهنا في الخاتمة: ﴿أَنَّ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾. كأن السورة تؤكد أن كل ما بين السماء والأرض في أمر الوحي يلتقي عند هذه الأمانة: رسالة من الله، رسول مصطفى، طريق محفوظ، ثم بلاغ إلى الخلق. وبعد البلاغ لا يبقى للإنسان أن يحتاج بأنه كان في ظلام لم يصل إليه نور.

ثم تأتي العبارة التي تغمر القلب مهابة: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾. الإحاطة ليست معرفة جزئية من زاوية واحدة، بل علم يشمل ما لديهم وما حولهم وما في صدورهم وما جرى في مهمتهم، فلا يغيب عنه شيء من شأن الرسل ولا من شأن من أرسلوا إليهم. كل كلمة

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

قيلت، وكل مقاومة واجهوها، وكل سر في النفوس التي سمعتم، وكل ألم تحملوه، وكل موقف ثبتوا فيه؛ كله داخل علم الله.

وهذه الإحاطة، إذا نُقلت من مشهد الرسالة إلى قلب المؤمن، تهبه معنى لا يقدر بثمن: الله يعلم ما لديك. قد يجهلك الناس، ويختصرون قصة كاملة في موقف واحد، ولا يرون من صبرك إلا نهايته، ولا يعرفون من نيتك إلا ظاهرها، لكن الله لا ينظر من ثقب صغير إلى حياتك؛ إنه محيط بما لديك. وهذه الإحاطة ليست مجرد رقابة تبعث الخوف، بل عدل ورحمة؛ لأن الذي سيحاسبك لا تنقصه معلومة عنك، ولا يحتاج إلى شهادة تكشف له ما خفي.

إننا نتألم أحياناً لأننا لم نفهم، وربما صار سوء فهم الناس عبئاً أثقل من الفعل نفسه؛ لكن ما دام الله محيطاً بما لديك، فليس الحق النهائي معلقاً بأذهان البشر. تستطيع أن توضّح لهم بحق، وأن تدافع عن نفسك إن لزم، لكن قلبك لا ينهار إذا عجزوا عن فهمك؛ لأن هناك علماً لا يخطئ صورتك.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة في السورة، كلمة لو وقف عندها القلب طويلاً لكفته في معنى المراقبة والتوحيد والقدر: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

كل شيء..

لا شيء يتساقط من الحساب.

لا حركة تضل، ولا نفس يضيع، ولا ذرة تخرج من العلم، ولا يوم يتوارى في الماضي فيصبح مجهولاً عند الله، ولا دمعة لم يرها أحد تصبح بلا سجل، ولا حسنة صغيرة يستهين بها صاحبها فتفقد، ولا ظلم دفنه الظالم تحت طبقات من الإنكار فيضيع. لقد أحصى كل شيء عدداً، ليس علماً إجمالياً مبهماً، وإنما إحصاء يعبر القرآن عنه بالعدد، ليزرع في الوعي معنى الدقة التي لا تترك شيئاً.

وما أعظم أن تنتهي سورة الجن بهذه الآية؛ لقد دخلناها بعالم غامض في نظر الإنسان، ثم خرجنا منها بعالم لا غموض فيه بالنسبة إلى الله. قد يكون الجن خفيين عنك، والغد خفياً عنك، والسماء وراء حدود حسك، والآخرة لم ترها، ونوايا الناس مستترة، لكن شيئاً من ذلك كله ليس مستتراً عن الله. الغموض صفة موقعك أنت في الكون، لا صفة علم رب الكون. وما تراه متاهة من المجهولات هو عند الله محاط محسوب.

ولهذا فإن المؤمن حين يعجز عن معرفة كل شيء لا ينهار؛ لأنه لم يُكَلَّف أن يكون عالم الغيب، وإنما كُلف أن يعبد عالم الغيب. وهذه من أعظم صور السكينة التي تصنعها

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

العقيدة؛ ليست الطمأنينة أن تعرف كل الإجابات، بل أن تعرف أن الله يعملها. ليست أن تحيط بكل شيء، بل أن تثق بمن أحاط بكل شيء. ليست أن تضمن تفاصيل الغد، بل أن تعرف أن الغد لا يخرج عن ملك من تعبد به اليوم.

وهكذا تنكشف أماننا وحدة السورة كلها. بدأت بـ ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ وانتهت بحفظ الرسائل؛ بدأت بحسن يستمعون إلى الوحي وانتهت برب يحصي كل شيء؛ بدأت بالدهشة: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وانتهت بالعلم المحيط؛ بدأت بقرار: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ ومررت بالأمر: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ثم بتصريح الرسول: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ أَحَدًا﴾، حتى أصبح واضحاً أن السورة، على الرغم من اسمها، ليست سورة تضخيم عالم الجن، بل من أعظم سور القرآن في تصغير كل مخلوق أمام جلال الخالق.

الجن فيها لا يعلمون الغيب، ولا يعجزون الله، ولا يستطيعون اختراق ما حُرس عليهم، وينقسمون إلى مؤمن وكافر، ويحتاجون إلى القرآن ليرشدتهم. والإنسان الذي كان يستعيز بهم تعلم أن استعاذته بهم لم تزده إلا رهقاً. والرسول نفسه، على علو منزلته، يعلن أنه عبد لا يملك من ذاته الضر والرشد، ولا يجد من دون الله ملتحداً، ولا يعلم من الغيب إلا ما عليه ربه. ثم يبقى الله وحده متفرداً بالكمال والملك والعلم والتدبير: رب السماوات، حافظ

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

الوحي، عالم الغيب، المتفرد بالنفع والضرر والهداية، الذي لا يُعجز، ولا يُهرب منه، ولا يُدعى معه أحد، والذي أحاط بما لدى رسله وأحصى كل شيء عدداً.

ومن هنا نرى أن سورة الجن ليست باباً إلى الخوف من العالم الخفي، بل باباً إلى التحرر منه بالتوحيد. من دخلها مفتوناً بالجن خرج منها ممتلئ القلب بتعظيم الله وتوحيده؛ ومن دخلها يسأل: ماذا يستطيع الجن؟ خرج وهو يسأل: كيف غاب عني سلطان الله؟ ومن دخلها يريد أسرار الغيب تعلم أن أعظم سر في الغيب أن مفاتيحه ليست عندك، وأن هذا النقص في معرفتك ليس عيباً ما دمت تعرف صاحب المفاتيح.

لقد زعت السورة من القلب وهماً بعد وهم: وهم أن الجن جنس خارق فوق التكليف، ووهم أنهم يعلمون ما وراء الستار، ووهم أن الاستعاذة بهم تمنح الأمن، ووهم أن العدد يمنح النجاة، ووهم أن النبوة تعني امتلاك صفات الربوبية، ووهم أن الإنسان يستطيع أن يعرف توقيت كل ما أخبر الله به، ثم انتهت إلى الحقيقة التي لا يبقى بعدها وهم: ﴿عَالَمُ

الْغَيْبِ﴾.

وإذا أردنا أن نختصر الرحلة كلها في تحول واحد، فهو انتقال القلب من الرهق إلى الرشد. في أول الطريق كان قوم من الإنس يعوذون بالجن فزادوهم رهقاً، وفي الطريق قال الجن

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ

عن القرآن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾، ثم قالوا عن المسلمين: ﴿فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾. إنها

السورة التي تقول لك إن الخوف المتشعب يرهقك، وإن التوحيد يجمعك، وإن البحث عن

الغيب في الأبواب الممنوعة يبددك، وإن القرآن يردك إلى الرشد.

وقد يكون هذا هو أعظم ما ينبغي أن يبقى في القلب بعد أن تُطوى الصفحة الأخيرة: أن

العالم، بكل ما فيه من مرئي وخفي، ليس أكبر من ربك؛ وأن ما تخافه من مجهول

المستقبل قد سبقك إليه علمه؛ وأن ما لا تستطيع إحصاءه من تفاصيل حياتك قد أحصاه؛

وأن ما تخفيه عن البشر ليس خافياً عليه؛ وأنت لا تحتاج إلى باب سري وراء الكون، لأن

لك باباً مفتوحاً إلى رب الكون.

فلا تجعل قلبك رهينة لعالم لا تراه، ولا لعراف يدعي معرفته، ولا لخلق تخافه، ولا

لمستقبل لم يأت، ولا لقوة يكثر حولها العدد، وإنما خذ من السورة عهداً الأول الذي نطق

به أولئك المستمعون الصادقون، واحتفظ به حتى آخر الطريق:

﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

ثم امض مطمئناً؛ ففوق ما لا تعلمه عالم الغيب، وفوق ما لا تستطيع ضبطه رب يدره،

وفوق ما تنساه أو تعجز عن عده إحصاء لا تسقط منه ذرة:

سُورَةُ الْجِنِّ | حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَيْبُ عَنْ عَجْزِ الْخَلْقِ
﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وهنا تكتمل آيات سورة الجن كلها من أولها إلى آخرها.